نهاية العشق

تأملات في لوحة شعرية

السيد عبد الله الفاطمي

مؤسسة تنظيم ونشر تراث الإمام الخميني (قدس سره)

الشؤون الدولية

العشقية

(الأصل)

من بخال لبت أى دوست گرفتار شدم

چشم بيمار تو را دِيدَم وبيمار شُدَم

فارغ از خود شُدَم وكُوس «أنا الحق» بزدم

همچو منصور خريدار سَرْدار شُدَم

دَرَ مَيْخانه گشائيد بِرَويم شب ورُوزْ

كه من از مسجد واز مدرسه بيزار شُدَم

جامه زُهدِ ورِيا كَنْدَم، وبرتن كَرْدَم

خرقه پير خراباتى.. وهُشيار شُدَم

واعظ شَهرِ كه از پند خود آزارَم داد

از دَم رند مَى آلودَه مَدَدْكار شُدَمْ

بِگذاريد كَهْ از بُتُكَدَه يادى بِكُنَمْ

من كَه با دَسْت بُت مَيْكَدَه بيدار شُدَمْ

العشقية

(ترجمة شعريَّة)

قــــد سَـــبَتْني يـــا حبيبـــي   شـــــامة فـــــي شَـــــفَتَيْكْ

وسَـــقَتْ قلبـــيَ ســـقماً   نظرتـــــي فـــــي مُقْلَتَيْـــــك

ذهلتُ نفسيَ عن نفسي ـ «أنا الحق» صرختُ

فاشـتريتُ، مثلمـا الحـلاّج يومـاً، حَبْـلَ شَـنْقي

شَجَنُ المحبوب ألقى في فـؤادي نـار عـشقٍ

أزهقت روحي، فـصرتُ قـصَّةً فـي كـلِّ حَلْـقِ

أشْـرِعوا بوّابـةَ الحـانِ أمـامي كـلّ وقـتٍ

فلقـــد مَـــلّ فـــؤادي كـــلَّ محـــرابٍ ودرسِ

ولقد ألقيتُ أثوابَ الزّهادات وأثـواب الريـاء

وارتديت «خِرْقت الشيخ»، فَـزَارَ الـصَّحْو رأسـي

واعـظ البلـدة كـم آذى مـن الـوعظ فـؤادي

فطلبـتُ العـونَ مـن أنفـاس مـصروعٍ بكـأسِ

فَـــدَعوني أذكـــر الأوْثـــانَ   هـــــــــذا مـــــــا أردتُ

فبأيـــدي وَثَـــن الحانـــةِ   إنّـــي قـــد صَـــحَوْتُ

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

ما من أحد يسقي الشاطر الظامئ كأساً لكأنّما

الذين يُقدّرون قَدْر الوليّ.. قد غادروا هذه الولاية

«العلم نقطة كثّرها الجاهلون» ـ هذا الكلام يُنْسب إلى مولى الكونين أمير المؤمنين عليّ(عليه السلام).

إنّ الجاهل لا يفهم، فيكثّر «النقطة» من جهتين:

الأولى ـ أن يعمد إلى مفهوم صحيح، فيأتي بكلام من عنده ـ على نحو السلب أو الإثبات ـ فيخلطه به ويدمجه فيه؛ ويسمّي ما فعل عِلْماً. مما يوجِد كثرة تُبْهِم «النقطة» وتسترها وتخفيها من الظهور. أو يعمد جاهل آخر ـ يرى نفسهُ عالماً ـ إلى ما اصطنعه من تلقاء نفسه، فيشرع يستنتج منه ويستنبط.. فتتولّد عندئذٍ كثرة لفظية، عمادها: (قِيل وقال).

الثانية ـ أن الجاهل يكون سبباً لأن ينبري عدد من أهل العلم للرد عليه وإبطال باطله. وبتعبير أوضح: إنّ الجاهل يستجرّ الكلام من الآخرين. ولعلّ هذا أحد معاني «كثَّرها الجاهلون».

ومهما يكن، فإن كاتب هذه السطور لا يدّعي العلم والفهم، لكنّه يقول ـ

من باب ﴿وأمّا بنعمة ربّك فحدّث﴾: إنّي لأشكر الله الجواد الكريم أن لم أكن من تلك الفئة من الجهلة الذين إذا وجدوا في أشعار عظماء أمثال سيد الفقهاء الإمام الخميني (نوَّر الله تربته الشريفة) ـ ألفاظاً من طراز «الوثن» و «الخمرة» و «الحانة» و «الخال» وما إليها، طفقوا يحملونها على ظاهرها اللفظي ودلالتها المباشرة.

وقد دونت في هذه الرسالة شيئاً موجزاً عن لغة أهل العرفان واصطلاحاتهم الخاصّة، بعدما كان عزمي في أوّل الأمر أن أتناول هذا الموضوع في مقدِّمة الرسالة على نحو مفصَّل مبسوط. وإذ كنت في صدد ترتيب خطّة هذه المقدّمة وتدوين محتواها ذكّرني أحد الأعزة من أهل العلم والمعرفة أن هذا الموضوع مبحوث في كتاب (الخدمات المتقابلة بين الإسلام وإيران). ولما عدت إلى الكتاب لمراجعته، استبان لي أن واحداً من غير المطّلعين (على طباق التفسير الثاني لـ «كثّرها الجاهلون») قد أثار الأستاذ الشهيد آية الله المطهّري (عطر الله مرقده) ليكتب بحثاً جامعاً مفصّلاً وافياً حول اصطلاحات أهل العرفان، والألفاظ المتداولة على ألسنة شعراء الغزل العرفاني في العالم الإسلامي، من مثل «الخمرة» و «الحانة» و «بيت الأوثان» و «الخال» ونظائر هذه الألفاظ. ولقد أحسن في بحثه وأجاد.

النقطة المهمة في بحث الأستاذ الشهيد أن هذا العالِم الرباني قد أتى

بشواهد ــ حتى من القرآن ونهج البلاغة ــ فيما يتّصل باستخدام ألفاظ مثل: «الشراب» و «القَدَح». وبعد دراسة بحث الأستاذ الشهيد ومطالعته، رأيت أن لا حاجة لتسويد الأوراق وإعادة بحث الموضوع مرة أخرى، وأن من الخير أن أحيل القراء الأعزاء على ذلكم الكتاب.

لقد كان بحث الأستاذ جامعاً وكاملاً ــ كما نوّهت ــ بيد أني أورد هنا ــ لزيادة بحث الأستاذ كمالاً، ولهدف آخر ــ بضعة نماذج شعرية لثلاثة من شخصيات العالم الإسلامي المرموقة، تحتوي على كلمات من مثل: «الخمرة» و «الكأس» و «القَدَح». اثنان من هؤلاء الثلاثة من القدماء، وواحد من المتأخرين.

أوّلاً ــ المرجع الإسلامي الكبير، السيد الأجل علي بن الحسين الموسوي، المعروف بـ «المرتضى»، والملقب بـ «عَلَم الهدى»، المتوفى عام (٤٣٦هـ). صاحب المؤلفات القيمة، مثل (الشافي) و (الانتصار) و (تنزيه الأنبياء) وسواها. وعلوّ مقامه وتضلّعه في العلوم والأدب مما لا يحتاج إلى بيان. يقول السيد المرتضى:

يا مليح الوجهِ.. لِمْ فعُـ   ـلُكَ لي غ يرُ لميحِ؟!
إنّ من يبذل نَفْساً   في الهوى، غير شحيحِ

والهوى بلوى، ولكنْ لسقيمٍ بصحيح
كَمْ ليالٍ سَهَري فيكَ غَبُوقي وَصَبُوحَي [(١)]

ثانياً ـ العلاّمة الأديب الشاعر الكبير، السيّد الأجلّ محمّد بن الحسين الموسوي، المعروف بـ «السيد الرضي» أو «الشريف الرضي» المتوفى عام (٤٠٦هـ)، جامع الكتاب النوراني (نهج البلاغة)، وصاحب المؤلفات النفيسة مثل: (المَجازات النبويّة) و (تلخيص البيان في إعجاز القرآن) و (حقائق التأويل ـ في تفسير القرآن الكريم... الذي يقول عنه بعض علماء السنّة: من العسير أن يؤلّف مثله) و (خصائص الأئمة عليهم السّلام) وغيرها، ولهذا الرجل الكبير من سعة الاطلاع وطول الباع في العلوم والفنون والأدب ما هو أظهر من الشمس، ممّا لا يحتاج إلى مزيد كلام.

يقول الرضي

سقى اللهُ يوماً ساعَدَتْنا كؤوسهُ على حين ما جاد الزمانُ بِمُسْعِدِ
جَلَوْنا عليه الخمر، حتى تكشّفَتْ فَواقِعُها عن لونها المتورِّدِ
نَفُضٌ لنا عنها حَباباً، كأنّه قَذىً يتمشّى بين أجفانِ أرْمَدِ

---

(١) ديوان الشريف المرتضى ١: ٢٠٥. ط مصر. والغَبوق: الشرب بالعشيّ. والصَّبوح: الشرب في أوَّل الصباح.

وَندمانِ صدق تسلُبُ الرّاحُ عقلَّهُ وتَسْلُبُها خدّاهُ حُسْنَ التورُّدِ

فلا زالتِ الأيّام تجري صروفُها علينا، بمغبوطٍ من العيش سرمدِ[1]

ويقول أيضاً:

اسقِني.. فاليومْ نَشْوانُ والرُّبى صاد وظّمْآنُ

كَفَلَتْ باللهْوِ ـ وافيةً لك ـ نايات وعِيدانُ

حازَ وفْدَ الريح فالتطمتْ منه أوراقٌ وأغصانُ

كلُّ فرعٍ مالَ جانبُه فكأنّ الأصلَ سكرانُ

حتى يقول:

فاسْقِني ـ فالوصلُ يألَفُني إنّ يوم البَيْنِ قَرْحانُ

قَهْوةً مازال يَقْلَقُ مِنْ مُجْتناها المِسْكُ والبان[2]

ثالثاً ـ العلامة الكبير الفقيه الشيعيّ الأديب المرحوم السيّد رضا الهنديّ، المتوفى عام (١٣٦٢هـ). الذي درس على أساتذة كبار من مثل السيّد محمّد الطباطبائيّ، والشيخ محمّد طه نجف، والشيخ حسن ابن صاحب (الجواهر)،

---

(١) ديوان الشريف الرضي ١: ٣٣٩. ط بيروت.

(٢) المصدر نفسه ٢: ٥٠٤ ـ ٥٠٥. يقول ابن السِّكِّيت اللغوي الكبير (رضوان الله تعالى عليه) في كتاب (تهذيب الألفاظ) المطبعة الكاثوليكيّة ١٨٩٥م، ص ٢١١: القهوة من أسماء الشراب.

والشربياني، والآخوند الخراسانيّ، ووالده السيد محمّد.. حتى بلغ مدارج عالية. وللسيّد أفق أدبيّ ذو شأن رفيع، يؤلّف البحث في شعره وأدبه رسالة مستقلّة. وللسيّد قصيدة في مدح أمير المؤمنين(عليه السلام) أسماها «الكَوثريّة»، لو قلت إنّها يتيمة بلا نظير لما غاليت. وهذه أبيات من القصيدة أوردها شاهداً على البحث، وتيمّناً بذكرها.

أمُفَلَّجُ ثغرك أمْ جَوْهَرْ؟! ورحيق رضابك أمْ سُكَّرْ؟!
قد قال لثغرك صانعهُ: «إنّا أعطيناك الكوثرْ»
والخالُ بخدّكَ.. أمْ مِسْكٌ نقّطتَ به الوردَ الأحمرْ؟!
أمْ ذاك الخالُ بذاك الخدِّ.. فَتيتُ النَّدِّ على مَجْمَرْ؟!
عَجَباً من جرمته: تذكو وبها لا يحترق العنبرْ!
يا مَن تبدو لي وَفْرَتُهُ في صُبْح مُحَيّاه الأزْهَرْ
فَأُجَنّ به بـ «الليل إذا يغشى» «والصّبح إذا أسْفَرْ»
إرحَمْ أرقاً.. لو لم يمرضْ بنعاس جفونك لم يسهرْ

إلى أن يقول:

فاجْلُ الأقداحَ، بصِرْف الرّا حِ.. عسى الأفراحُ بها تُنْشَرْ
واشْغَلْ يُمْناك بصبّ الكأ سِ، وخَلِّ يُسراكَ للمِزْهَرْ
فَدَمُ العُنْقود، ولحنُ العُو دِ.. يُعيد الخيرَ وينفي الشّرّ
بَكِّرْ للسّكْر قُبَيْل الفَجْـ ـرِ، فَصَفْوُ الدهر لمن بَكَّرْ

ويقول:

هل يَمْنَعُني ـ وهو السّاقي ـ أن أشربَ من حوض الكوثرْ؟!
أمْ يطردني عن مائدةٍ وُضِعتْ للقانع والمُعْتَرْ
يا مَنْ أنكرَ مِنْ آيات أبي حَسَنٍ ما لم يُنْكَرْ:
إنْ كنتَ، لجهلك بالأيّام، جحدتَ مقامَ أبي شُبَّرْ
فاسألْ بَدراً، واسألْ أُحُداً وسَلِ الأحزابَ وسَلْ خيبرْ
مَن دبّر فيها الأمْرَ؟ ومَنْ أردى الأبطالَ؟ ومَن دَمّرْ؟
مَنْ قدّمه (طه)، وعلى أهل الإيمان له أمَّرْ؟
قاسُوك، أبا حَسَنٍ، بِسوا كَ.. وهل بالطّود يُقاس الذّرّ؟
مَنْ غيرُك يُدعى للحرب وللمحراب وللمنبرْ؟!
أفعالُ الخير ـ إذا انتشرتْ في الناس ـ فأنت لها مصدرْ
وإذا ذُكرَ المعروفُ.. فما لسواكَ به شيءٌ يُذكَرْ
فاصْدَع بالأمرِ، فناصرك البَتّار وشانئك الأبترْ
أنت المهتمّ لحفظ الدّين، وغيرك بالدنيا يغْتَرّ
آياتُ جلالك لا تُحْصى وصِفاتُ كمالك لا تُحْصَرْ
مَنْ طوّلَ فيك مدائحَهُ عن أدنى واجبها قَصَّرْ
فاقْبَلْ ـ يا كعبةَ آمالي ـ مِن هَدْي مديحيَ ما اسْتَيْسَرْ

شرح العشقية

قال سيّد الأعاظم (قدّس الله لطيفه، وأجزل تشريفه):

مَنْ بِخال لَبَت أيْ دُوسْت گرِفْتارْ شُدَمْ
چشْم بِيمار تْو را دِيدَم وبِيمارْ شُدَمْ

وترجمته:

سُبيتُ يا حبيبي بخالِ شَفَتك
أبصرتُ عينك المريضة.. فَمَرِضْتُ

شرح المفردات والمصطلحات

معنى «الخال» و «الشَّفَة» معروف لُغَوِيّاً. وقد كثر تداول هاتين اللفظتين، في الأدب الفارسيّ وعلى ألسنة الشعراء، كثرة تفوق الحصر والإحصاء، ممّا يغنينا عن إيراد الشواهد:

«العين المريضة أو السّقيمة» يراد بها العين السَّكْرى، الناعسة التي تُضفي على المحبوب مزيداً من الجمال[1].

(١) لعلّ وصف عين المرأة المحبوبة، في معرض الغزل، بأنها «مريضة» أو «سقيمة» مما يثير

شيئاً من الغرابة لدى كثير من المتذوّقين العرب.. في حين يستمرئه الذوق الفارسي ويتحسّس ما في هذا الوصف من عذوبة وفتنة وجمال. بَيْد أن قليلاً من التأمل في رموز الحب الواردة في لغة شعر العربي، من شأنه أن يقترب بالمتذوّق إلى إدراك هذا الوصف، ويُدْنيه من تحسّسه وتذوّقه، فتزول عندئذ هذه الغرابة التي بَدَهَتْه أوّل الأمر. وهذا التأمّل يقوم على استذكار مسألتين:

الأولى: أن المراد بالعين المريضة أو السقيمة هو نفسه ما يراد ـ لدى وصف عين المحبوبة في شعر الغزل العربي ـ بأنها عين «وَسْنى» أو «ناعسة» أو «ذابلة».. ويهدفون من ورائه إلى تصوير لون من الجمال الآسر الأخاذ، كقول الحادِرة في «عينيّته» المعروفة:

وقول عَدِيّ بن الرقاع:

وهذا الوصف من التعابير الجمالية العالية التي تُطْلَب في المرأة، في كثير من رموز الحبّ في الشعر العربيّ.المسألة الثانية: إنّ وصف عين المحبوبة بأنّها مريضة قد ورد أيضاً في عدّة صور من شعر العرفان والتصوّف العربي، لدى تصوير التأثير الورحيّ لعيون الحبيب في المُحِبّ.. مما يعني أن العين المريضة هي أفضل ما يُتَعَشَّق من العيون، على عكس العين التي واجهك بجرأة ووقاحة ذميمة. وحسبنا أن نأتي هنا بمثالين من شاعرين هما أكبر شعراء العرفان في الأدب العربيّ. يقول ابن عربيّ:

ويقول ابن الفارض:

يريد بـ (الدُّوَيّ) ـ الدواء.

وبعد هذا كلّه.. ألا ترى أنّ نعت عين الحبيبة المنشودة، ممّا له صلة بالوصف النموذجيّ الذي يورده القرآن الكريم لجمال عيون المرأة ـ النموذج في جنّات الخلود، في مثل قوله (تعالى) (قاصِراتُ الطَّرْف).. بما لهؤلاء القاصرات الطّرْف من رابطة نَسَب بالعيون المريضة، الوَسْنى الناعسة؟ إنّ الشعراء هؤلاء ليتطلّبون إذَنْ ـ في وصفهم الرمزيّ ـ النموذج الكامل في

وقد استخدم هذا المصطلح، في الشعر الفارسيّ، منذ أمـد بعيـد، وطالمـا أورده الشعراء في كثرة كاثرة من أشعارهم.

يقول حافظ الشيرازي:

قُلْ لقوس حاجبك ألاّ يرمينـي بـسهم .. فأموت أمام عينـك المريـضة![1]

ويقول أيضاً:

ماذا أقول في شكر عينيك.. التي أمرضتك

وبَلْسَمَت أوجاعي؛ لأنّها في طلعتك الجميلة؟![2]

تفسير عِرْفانيّ

يقول التّهانَويّ في تفسير «الخال»: «هو في عرف السالكين إشارة إلى نقطة الوحدة ـ من حيث الخفاء ـ التي هي مبدأ الكثرة ومنتهاها: منـه بَـدأ وإليـه يرجع الأمر كلّه. وذلك أنّ الخال ـ لسواده ـ مشابه للهويّة الغيبيّـة المتحجبـة

---

(١) أوردنا هذا البيت وفق طبعة (قدوسي) لديوان حافظ. وقد جاء عجز البيـت فـي طبعـة (بَجْمان) هكذا: (فأموت أمام يدك وعضدك).

(٢) ديوان حافظ (طبعة بجمان)،العشقية رقم٢٩٩، ويمكن ترجمة البيت الأول شعرياً هكذا:

عن الإدراك والشعور «لا يرى الله إلاّ الله، ولا يعرف الله إلاّ الله». وقيل: الخال هو الوجود المحمّديّ ـ أي عالَم الوجود»[1].

يقول كاتب هذه السّطور: قال الحكيم العارف الكبير المُلاّ علي النوريّ في حاشيته على تفسير صدر الحكماء (رضوان الله تعالى عليهما): «إن الرحمة الوجوديّة لهي الرّحمة الرّحمانية المسمّاة بـ «النَّفَس الرّحمانيّ»، وبـ «الوجود المطلق»، و«الفيض المقدّس»، وبـ «المشيئة التي خُلِقَتْ بِنَفْسها». وهي «الحقيقة المحمّديّة» ـ في وجه. وتُقَيَّد بـ «الوجودية» تفرقةً بينها وبين الرحمة الرحيميّة، المسمّاة بـ «الرحمة المكتوبة على نَفْسه (سبحانه).. المسمّاة بـ «أم الكتاب» و«اللّوح المحفوظ» الذي كتب القلم الأعلى المحمّديّ فيه كلّ ما كان، وما يكون إلى يوم القيامة. وهي العَلَويّة العُلْيا».

(١) الكشاف ١: ٤٥١ ط. كلكّته.

إشارة فيها إنارة، خُذْها وكن من الشاكرين

حين يغدو المرء طائعاً لله (جلّت عظَمته)، ملتزماً بموازين الشريعة المطهّرة، معنيّاً بتهذيب النفس، سالكاً مسلك التواضع (بالمفهوم العامّ الذي قال عنه إمام الموحّدين صلوات الله عليه: ومَشْيُهُمُ التّواضع)، مكتسباً الخصال العالية (التي لا يبلغ أحد بدونها أيّ مقام)، متعبِّداً بالعبادات الكاشفة عن المحبّة ـ أي مكشوفة له عبادة المحبّة لله ـ حتى يبلغ مقام «قُرْب النّوافِل» (الذي سنتحدَّث عنه، إنْ شاء الله، فيما بعد)، وهو المقام الذي لا يتحقّق لأحد بدون ولاية أهل البيت (صلوات الله عليهم):

مِنْ مَمَرّه على تراب حيّكم

يحصل نسيم السَّحَر على عبيره المِسْكيّ

فإنّ هذا المرء (الذي فاز بهذا المقام) سيصبح عندئذٍ مشمولاً بتعبير «من شِئنا»[1]. وفي هذه الحالة ـ إنْ كان مصلحة في الأمر ـ سيكون (بإذن الله) ممكناً له أن يستمع مناجاة «قَلْب العالم» أرواحنا فداه.

---

(١) إشارة إلى الحديث الذي ورد عن أحد الأئمّة (صلوات الله عليهم)، حين سئل: ومَن يتحمّل أمركم؟ فقال عليه السلام: (نحن.. ومَن شِئنا).

جاء في زيارة (آل يس):

«السلام عليك حين تصلّي وتَقْنُت. السلام عليك حين تركع وتسجد. السلام عليك حين تُهَلّل وتكبّر. السلام عليك حين تَحْمَد وتستغفر»، حتى يصحّ أن يسمّى مُفاد هذه الكلمات النورانيّة «خالَ» تلكم الشفاه الجميلة الرائعة.

وطباق ما أفَدْنا من العبارات السابقة، فإنّ هذه المرحلة إنّما تتحقّق عندما لا تكون الزيارة هذه فيها مجرّد قراءة للألفاظ بل يخرج الزائر عندها، حسب تلكم المقدّمات، من عالم السَّواد والسُّحْمة، فيرى الكلمات بِيضَ اللّون (رزقنا الله تعالى هذا المقام، إنه جواد كريم).

تفسير «الشَفَة»

يقول صاحب الكشّاف: الشفة كلام المحبوب. وشفة العقيق: بُطون كلام المحبوب.

تفسير «العين المريضة»

يمكن تفسير هذه العبارة بثلاثة وجوه:

الوجه الأوّل

هو أنّ «العين المريضة» إشارة إلى مشاهدات العارف ومكاشفاته التي تسطع عليه، خلال طيّ المراحل، أنواراً من الحقّ (تبارك وتعالى)، وتريه عوالم على نحو (الوَصْل والقَطْع). ونذكر هنا كلاماً لسيّد العارفين وإمام الموحِّدين (صلوات الله عليه)، لا يستبين بدونه هذا الموضوع المهمّ.

قال(عليه السلام): «قد أحيى عقلّه، وأمات نفسه، حتى دَقّ جليله، ولَطُف غليظه، وبَرقَ له لامعٌ كثير البَرْق، فأبانَ له الطريق، وسَلَك به السُّبُل (السبيل)، وتَدافَعَتْه الأبواب إلى باب السّلامة ودار الإقامة[1]. وثّبَتتْ رِجْلاه بطُمَأنينة بدنه في قرار الأمْنِ والرّاحة[2]، بما اسْتَعْمَل قلبَه، وأرضى ربَّه»[3].

واعلمْ أنه ما صَدَر من أحد كلام في حقيقة السلوك، وبيان أحوال السّالك ومراحله وشؤونه، ووصف مبتدأ سعيه ومنتهاه، أجلّ وأعلى من هذا الكلام.

يقول ابن أبي الحديد المعتزليّ: وكلّ ما قال العارفون في هذا المعنى فمن أمير المؤمنين(عليه السلام) أخذوه. ويقول: وما قاله ابن سينا والقشيريّ في باب (وصف السّلوك والسّالك) فقد اقتدوا فيه بكلام أمير المؤمنين(عليه السلام).

---

(١) ربّما كان المراد بـ «دار الإقامة»: مرحلة الاطمئنان، أو الجنة، أو كلاهما.

(٢) يبدو أن المراد مرحلة الاطمئنان (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) واليقين الكامل.

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١١: ١٢٧.

كلام الشيخ الرئيس ابن سينا

«.. ثم[1] إنّه إذا بلغت به الإرادة[2] حدّاً ما، عَنّتْ خَلَسات ـ من اطلاع نور الحقّ عليه ـ لذيذة، كأنّها بُرُوق تومض إليه، ثم تَخْمد عنه، وهو المسمّى عندهم «أوقاتاً». وكلّ وقت يكتنفه وَجْدان: وَجْد إليه، ووَجْد عليه. ثم إنه لَتكثر عليه هذه الغَواشي إذا أمعن في الارتياض»[3].

نتيجة

يمكن القول إذَنْ: إن المراد بـ (العين المريضة) ألطاف الحقّ (تعالى)، ومصداقها هذا النور المذكور والخَلَسات التي مرّت الإشارة إليها. ومعنى «مَرِضْتُ» هو حصول الوَجْد الثاني ـ وجد ما بعد المشاهدة. (تفطّن لهذا المعنى بدقّة، فغير الدقّة لا يُغْني هنا شيئاً).

(١) لفظة (ثم) ترتبط بموضوع سابق تحدّث عنه الشيخ، ممّا لا حاجة هنا لإيراده.

(٢) الإرادة في الرؤية العرافنية: حركة القلب في طلب الحقّ (تعالى). ولها معان أخرى أيضاً.

(٣) شرح الإشارات ٣: ٣٨٤.

الوجه الثاني

أنّ المقصود من «العين المريضة» هو الجَذْبة، فيكون معنى «مَرِضــتُ» دالاًّ على الانجذاب.

وهنا، فلتعذروا كاتب هذه السطور القليل البضاعة الكثير الإضاعة عن هذا الإجمال، ولا تنتظروا منه مزيداً مــن التوضــيح؛ لأنــي معــذور ـ أوّلاً ـ مــن الوجهة الشرعيّة، ولأن حالي هو ـ ثانياً ـ كما يقال: «أين الثّرى من الثُّريّا؟!». ووفق قول سيد الأدباء العلامة الكبير السيّد على خــان المَــدَنيّ (رضــوان الله عليه): «أنى لِمُرْتعش الجناح تَسَنّم هذا المطار، ولمرتعد الجَنان تَقَحّــم هــذه الأخطار؟!».

وها أنذا ، خلوصاً من الإيجاز المُخِلّ ـ أقتبس نصّاً من بعض أكــابر هــذا الميدان:

«اعْلَمْ أن النفس الإنسانية ـ بحكم خواصّ التطــوّرات، وغَلَبــة الأحكــام[1] الطبيعيّة والحيوانيّة عليها[2] ـ كانت غافلةً عن أصل فطرتهــا، متوجّهــة إلــى حظوظها المختصّة بالنشأة الحسيّة العاجلــة، منغمــرةً فــي الــشهوات الزائلــة

---

(١) في الأصل: أحكام.

(٢) في الأصل: عليه.

الفاسدة، وأمّارةً بالسّوء. فشمل حكمُ هذه الغفلة السّرَّ الإلهيّ الوجوديّ، وحقيقة الأثر الرّوحانيّ، وحقيقة النفس الإنسانيّة الحَيَوانيّة. وغَلَبَتْ أحكامُ الكثرة على هذه الحقائق الثلاث، وانحرفت أخلاقها، إمّا إلى تفريط أو إفراط. فَخَفِيَ أثر القلب الوَحْدانيّ الاعتداليّ في كلّ منها، بل استُهْلِك بالنسبة إلى بعض الأشخاص. فإذَن الناس لا يخلو من أحد الثلاثة:

إمّا أن يكون قد استُهْلك أثر القلب الاعتداليّ فيه، كاستهلاك الصورة في الممسوخين، وضاع رأس ماله واستعداده، فهو لم يؤمَّل للسلوك، بل من المتمكّنين في أسفل السافلين.

وإمّا أن يكون قد شملته العناية الإلهية من الوجه الخاصّ، وطريق انحراف سرّه الوجوديّ المُفاض على حقيقته. وعليه وسع الأثر الروحانيّ، والنفس الإنسانية، بموجب «جَذْبة من جذبات الحقّ توازي[1] عمل الثّقَلين»، فيكون من الأولياء الذين أخرجهم من الظلمات إلى النور بلا سعي وتعمّل. وهو الذي يقطع الحجب بالجذبات الإلهية. وهو المحبوب المراد، يُتَخَطَّف بالجذب قبل السلوك، ولا يعرف المنازل والمقامات إلاّ عند رجوعه من الحقّ إلى الخلق؛ لتنوّره بالنور الإلهيّ، وتحقّقه بالوجود الحقّانيّ. ونِعْمَ ما قيل

(١) في الأصل: يوازي.

بالفارسيّة:

طوبى للثَّمِل الذي ينهض، من ذلكم الحرم، صـاحياً

غافلاً عن أنّه كان على قارعة الطريق، في جادّة الديار

نصح وتحذير

لعلّك تظنّ أنّ ما أسلفناه من الكلام عن بعض الأكابر من الأعلام كلام سهل يفهمه الخواصّ والعوامّ. كلاّ، بل هو من العويصات والمعضلات، لا سيّما إذا ورد مجرّداً عن التعليقات والتوضيحات.

وإيّاك والاغترار بفهمك في أمثال هذه المطالب؛ فإنّها لا تنحلّ بمجرّد الاصطلاحات من كلمات أرباب الأذواق والمشارب. واعلمْ أنّ ما يفيده ذلك الكلام إنّما يتحصّل للأنبياء (صلوات الله عليهم) والكُمَّل من الأولياء.

ولعلّ في بعض كلمات هؤلاء الأعلام رمز في التعبير، أو تسامح في التقرير، يحتاج إلى توضيح وبيان. وليس كما يزعمه بعض الجَهَلة من مُدّعي العلم والعرفان. فإيّاك أن تكون من السّمّاعين لكذبهم والأكّالين من سُحْتهم، والله (سبحانه) يقول: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾[1]، فأمّلْ.

---

(١) سورة عبس: ٢٤.

وقال (سبحانه وتعالى): ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾[1]. وقال (عز منْ قائل): ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[2]. وقال (جلّ شأنه): ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾[3]. وقال، وهو أصدق القائلين: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾[4].

وعن أبي عبد الله(عليه السلام)، قال: «أوحى الله إلى موسى(عليه السلام): يا موسى! تدري لِمَ اصطفيتُك بكلامي دون خلقي؟ قال: يا ربِّ، ولِمَ ذاك؟ فأوحى الله (تعالى) إليه: يا موسى إنّي قَبلتُ عبادي ظهراً لبطن، فلم أجد فيهم أحداً أذلّ نَفْساً لي منك. يا موسى إنّك إذا صلّيتَ وضعتَ خدّك على التراب ـ أو قال: على الأرض»[5].

الوجه الثالث

يمكن أن يقال إنّ «العين» هنا: عين الله، وهو الوجود اللطيف لإمام الزمان (صلوات الله وسلامه عليه وعلى آبائه الطاهرين)، كما وَرَد في زيارته: «السّلام عليك يا عَيْنَ الله في خلقه».

---

(١) سورة النجم: ٢٩.

(٢) سورة العنكبوت: ٦٩.

(٣) سورة التغابن: ١١.

(٤) سورة النور: ٥٤.

(٥) أورد المؤلف هذا (النصح والتحذير) مكتوباً بالعربيّة في الأصل.

تتميم نفعُه عميم

اعلم أنّه قد روي مراراً عن سلطان الولاية (صلوات الله عليه) عبـارة: «أنـا عين الله». وأنّ كون الأئمّة الطاهرين (صلوات الله عليهم أجمعين) «عـين الله» و«يد الله» و«جَنْب الله» و«لسان الله» و«قلب الله الـواعي»، فإنّمـا هـو حقيقـة مفروغ منها، قد اتّفق عليها أهل البصائر، وتدلّ عليها أحاديـث كثيـرة. وهنـا معانٍ وأسرار جمّة، وينبغي الاستمداد في هذا الخصوص من فيض أولياء الله، لا من هذا الفقير الأسْود الوجه الّذي حَبَسته كثرة الذنوب، وأين التّـراب مـن أسرار ربّ الأرباب؟!

*كنتُ أؤثر العزلة والسلامة، ولكن

النرجس الفتّان يَفْتِن.. فلا تَسَلْ

* برشفةٍ لا تُورِث أذىً لأحد

فأنا أتعذّب من جهَلَة الناس.. فلا تَسَلْ

* إنّ في هذا السبيل لأحاديث تحرق القلب

ومن يعربد فلا تطلب منه إيضاحاً.. ولا تَسَلْ

قال سيّد الفقهاء (قدس الله روحه الشريف):

فارِغ از خُود شُدَم وكُوس «أنا الحقّ» بزَدَمْ

هــمچو «منصــور» خَرِيــدار سَرْدار شُدَمْ

وترجمته:

ذُهلتُ عن نَفْسي، وأطلقتُ صرخةَ: «أنا الحق»

.. وكمــا فَعَل الحلاّج ـ اشتريتُ حَبْلَ المِشْنقة

شرح المفردات والمصطلحات

«فارغ از خود شدم»: نَسِيتُ نفسي، ذُهِلْتُ عن نفسي، غِبْـتُ عنّـي. يقــول حافظ الشيرازي:

لــو ذُهِــلَ الأحبــابُ عــن ذِكْــري   ذكـــرتُهُمْ عَـــشْرَةَ آلافِ ذِكْـــر

ولهذا المصطلح، في الأدب الفارسي، نظائر كثيرة وفيرة تغنينا عــن إطالــة الكلام.

«كُوسْ زَدَن»: قَرْع الطَّبْل. ولهذا التعبير، في الشعر والأدب، معانٍ متعــدّدة، يقرّرها السياق (وكلّها يرجع إلى معنى أصلي واحد تقريباً)، مثل: الإعلان عن شيء، إثبات شهرة لامرئ ما في المجتمع، وأمثال هذا، وبتعبير أدقّ: إنّ هــذا المصطلح في الموارد المذكورة هو كناية عن هذه المفاهيم.

«منصور»: هو تعبير عن الحسين بن منصور الحلاّج (المقتول سنة ٣٠٩هـ)، والذي أثِرَت عنه قولته الشهيرة: «أنا الحقّ» التي أدّت به إلى حبــل المــشنقة.

وأخباره مستفيضة في كتب التاريخ والتراجم، وخاصة ما كُتِب في أحوال العرفاء والصوفيّة.

ولسنا هنا في صدد ذكر أخباره وآثاره وأفكاره ومآل أمره، لكنّا نريد إلى التأكيد أن الأخبار التي وردت فيما يتصل بمولده ونشأته وعقائده وآثاره، أخبار متناقضة متضاربة، فكان بين مدح المادحين وقَدح القادحين.

يقول ابن النديم[1] (المتوفي سنة ٣٨٥هـ) المقارب لعصر الحلاّج، في بداية ترجمته ـ وقبل أن يتمّ موضوع حديثه: «وليس يصح في أمره وأمر بلده شيء بتّة»[2].

وقد تعرّض لذكره الشيخ الصدوق، وشيخ الطائفة الطوسيّ (رضوان الله عليهما)[3]. وتكلّم عنه من القدماء أيضاً الخطيب البغدادي، فأورد ترجمة له بشيء من التفصيل[4].

ليس الهدف من وراء هذا، هو الدفاع عن الحلاّج . وما أوردناه عن ابن النديم إنما يصحّ أن يكون منطلقاً لتجديد النظر ـ وحسب ـ في أمر الحلاّج.

---

(١) يلفظها بعضهم (النديم) بدون (ابن).

(٢) الفهرست: ٢٤١ ط ايران.

(٣) الشيخ عباس القمي: الكنى والألقاب، ٢: ١٦٧ط. النجف.

(٤) تاريخ بغداد، ٨: ١١٢.

ولو كان هدفنا الدفاع عن هذا الرجل لما ذكرنا المصادر التي تذمّه وتحمل عليه. ونحن قد تعاملنا مع موضوع الحلاّج بموضوعية، وهدفنا من وراء إيراده هو أن نستوفي شرح الأبيات، ولا يظل شيء منها ناقصاً غير تام الدلالة.

نحن الآن في سياقة شرح مفردات بيت الشعر هذا وتفسير ما فيه من المصطلحات، لنتعرف على المراد من «قول: أنا الحقّ، وشراء حبل المشنقة».
إن لتفسير هذا البيت وجهتين:

الأولى ـ يدرك من له بصر بالأدب الفارسي أنّ كلّ ما ورد في هذا البيت من معانٍ قد تنزّل ـ في أدب إيران عامّة ـ بمنزلة المثل السائر، أو الكناية عن الثبات والصّمود الذي يُعين على تحمّل المصاعب والمصائب، وتلقّي سهام عذل الناس وملاماتهم.

الثانية ـ ترد حكاية الحلاّج وتقدّمه إلى المشنقة ـ في بعض المناسبات ـ مثلاً على إفشاء الأسرار، والبوح بالمعاني التي لا تدركها أفهام العامّة، يقول حافظ:

*قال ذلك العاشق (شيئاً) فَنُبَتْ له المشنقة

جزاء بَوْحه بالأسرار

*وتغنّى الحلاّج ـ وهو على المشنقة أنْ:

سَلوا الشافعيّ عن أمثال هذه المسائل!

ويقول سنائي:

*اللسان الذي باح بالسرّ المطلق

كان الحلاّج في صحيته: أنا الحقّ

*وإذ أعطى السرّ معكوساً

غدا السرّ جلاّداً... وقتله[1]

تفسير عرفانيّ

«نَسيت نفسي» أو ذُهلت عنها، وصف لصاحب القلب السليم. وفي الحديث عن الإمام الصادق (عليه السلام) أنّ سائلاً سأله عن قوله (تعالى): ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[2]، فقال (عليه السلام): القلب السليم الذي يلقى الله ولا أحد فيه غيره[3].

وورد هذا المضمون كثيراً في الأدعية المأثورة عن أهل بيت الوحي

---

(١) حديقة الحقيقة: ١١٣. ط. المدرس الرَّضويّ.

(٢) سورة الشعراء: ٨٩.

(٣) مقتبس من كتاب الشموس الطالعة.

والعصمة (عليهم السلام). يقول الإمام السجاد (عليه السلام): «الهي، أخلصتُ بانقطاعي إليك، وأقبلت بكلّي عليك»[١].

وأرفع هذه المفاهيم ما جاء في «المناجاة الشعبانية»[٢]. ومن كان له إقبال قلب ـ ولم يكن غير مؤهل مثلي ـ فليراجع هذه المناجاة[٣].

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) هذه المناجاة عي نصٌ عظيم من نصوص الضراعة بين يَدي الله (جلّ جلاله). قال ابن (خالَوَيه): إنّها مناجاة أمير المؤمنين والأئمة من ولده (ع)، كانوا يدعون بها في شهر شعبان.

(٣) ومن فقرات هذه المناجاة:

((اللهم صل على محمد وآل محمد، واسمع دعائي إذا دعوتك، واسمع ندائي إذا ناديتك. وأقبل عليّ إذا ناجيتك؛ فقد هربت إليك، ووقفت بين يديك، مستكيناً لك، راجياً لما لديك.)).

((الهي ... كأن بنفسي واقفة بين يديك، وقد أضلها حسن توكلي عليك، ففعلت ما أنت أهله وتغمدتني بعفوك. إلهي ... إن عفوت فمن أولى منك بذلك؟! وإن كان قد دنا أجلي، ولم يدنني منك عملي، فقد جعلت الإقرار بالذنب إليك وسيلتي... الهي كيف آيس من حسن نظرك إليّ بعد مماتي وأنت لم تولني إلا الجميل في حياتي؟!)).

((الهي ... إن أخذتني بجرمي أخذتك بعفوك. وإن أخذتني بذنوبي أخذتك بمغفرتك. وإن أدخلتني النار أعلمتُ أهلها أني أحبك)).

((إلهي .. أنا عبدك الضعيف المذنب، ومملوكك المنيب، فلا تجعلني ممّن صرفت عنه وجهك، وحجبه سهوه عن عفوك. إلهي... هب لي كمال الانقطاع إليك ، وأنِرْ أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك.. حتى تخرق أبصار القلوب حجب النور فتصل إلى معدن العظمة، وتصير أرواحنا معلقة بعزّ قدسك. إلهي.. واجعلني ممّن ناديته فأجابك، ولاحظته فصعق لجلالك؛ فناديته سرّاً وعمل لك جهراً...)) ينظر مثلاً: مفاتيح الجنان (أعمال شهر شعبان).

كلام الشيخ الرئيس ابن سينا حول غياب السالك عن نفسه

«... فإذا عبر الرياضة إلى النيل، صار سرّه مرآة مَجلُوّة ... محاذياً بها شطر الحق. ودرّت عليه اللّذات العُلى، وفرح بنفسه لما بها من أثر الحقّ. وكان له نظر إلى الحق ونظر إلى نفسه، وكان بَعْدُ متردِّداً.

إشارة ـ ثُمّ إنه ليغيب عن نفسه... فليحظ جناب القدس فقط. وإنْ لَحظَ نفسه فمن حيث هي لاحظة، لا من حيث هي بزينتها وهناك يحقّ الوصول»[١].

تكملة فيها تبصرة

قوله: «وهناك يحق الوصول». أعلم أن أهل النظر يعدّون مقام (التّمكين) أعلى وأشرف من مقام (التلوين)، وهذا حقّ.

ينقل الفيلسوف العارف الكبير الميرزا هاشم الإشكوري (قدس سرّه) (صاحب التعليقات على «مفتاح الانس» و«النصوص» و«تمهيد القواعد» ـ لدى تعليقه على «النصوص» صدر الدين القونوي ـ قول أحد أكابر العرفاء: إن مقام التلوين أعلى من مقام التمكين[٢]. ثُمّ يقول المرحوم الاشكوري في توجيه كلام ذلكم العارف: «وما قال بعض أكابر العرفاء الشامخين في اصطلاحاته: ان مقام التلوين أعلى من مقام التمكين ... فمراده: التمكين قبل

---

(١) الإشارات والتنبيهات،٣ :٣٨٦.

(٢) التلوين في اصطلاح العرفاء: تلوّن العبد في أحواله. أي العبور من حال إلى حال وما دام العبد في الطريق فهو صاحب تلوين لأنه يترقى في الدرجات. أما التمكين فهو صفة أهل الحق. وصاحب التمكين لا ينقلب عن حاله.؛ لأنه قد وصل إلى آخر المقامات الولاية. وابتدأ سفره الثاني إلى الحق (تعالى). بنظر: معجم الألفاظ والمصطلحات العرفانية.

الوصول؛ لأنّ الوقوف في بعض المقامات مذموم. إذ لا يصحّ ولا يمكن الترقّي في الدرجات إلاّ بثبوت مقام التلوين. فإن التلوين يترقى من مقام إلى مقام... لا التمكين الذي في المرتبة الجمعية، الرافع لحجاب الخصوصية ـ بالنسية إلى التلوينات التي في صراط ذلك التمكين... فافهم»[١].

«وأطلقت صرخة أنا الحق»:

وقبل أن ندخل في التفسير العرفاني لهذا البيت، نأتي هنا بملاحظات ثلاث على نحو الإيجاز والتركيز:

الملاحظة الاولى

ان مثل هذه العبارات والمصطلحات ربما تقع بأيدي بعض المغرضين الذين لا معرفة لهم ولا ايمان رادع، فيقتنصون الفرص عندئذ لتخريب عقائد طائفة من بسطاء الناس، ويلقون في أنفسهم سوء الظن بالرجال الصلحاء الكبار.

روى عبد العظيم الحسني عن الإمام الجواد، عن أمير المؤمنين (صلوات

---

(١) لم تكن هذه الفقرة من هوامش المرحوم الاشكوري قد طبعت من قبل أن يطبعها السيّد جلال الدين الآشتياني ـ دام الله عزّه ـ في آخر رسالة (النصوص) للقونوي. ويفهم من ايضاحات السيد جلال الدين الآشتياني أن المرحوم الأستاذ الميرزا أحمد الآشتياني (قدس سرّه) قد استنسخها من خط الميرزا هاشم الاشكوري، ثُمّ حصل عليها السيد جلال الدين وقت تلمذته على الميرزا أحمد.

الله عليهم أجمعين) أنه قال: «مجالسة الأشرار تورث سوء الظن بالأخيار»[1].

وهذا يعني أنّ على الأتقياء والصلحاء واهل التدين من الناس أن يكونـون على حذر، فلا يقعوا في حبائل أمثال هؤلاء المغرضين ولا يصدقوهم بمجرد الاستماع إلى أقاويلهم. وأن يعرضوا ما يسمعونه من المخالف ـ معانداً كـان أو جاهلا لا معرفة له ـ على أصـحاب الخبـرة والعلمـاء الربـانيين، لإزالـة الشبهة.

الملاحظة الثانية

ربّما يعمد المخالفون أحياناً ـ كما أشرنا ـ حين يسمعون بعض العبـارات والمصطلحات من الكبراء، إلى وصفهم بمـا لا يليـق، كـأن ينـسبونهم إلـى مسلك «فانظره في حجر وأنظره في مدر، فذلك الله»! نعوذ بالله.

وليست مثل هذه التهم بجديدة (وليست هـذه أول قـارورة كـسرت فـي الإسلام ـ كما يقال)، وهي تصدر إما بدافع العناد أو دافع الجهـل. إن مقـام كبرائنا هو أكبر من أن ندافع عنهم بمثل هذا الدفاع .. تماماً كمـا نقـول عـن أحد كبار العبّاد والزهاد: إنه لا يسرق! لكن.. ما الحيلة والجاهل يستجرّ المرء إلى الكلام.

---

(١) الشيخ عباس القمي، منتهى الآمال ٢: ٢٣٠.

إننا لا ننكر أن هناك من يقول بالاتّحاد أو الحلول. ونحن لا شأن لنا بهؤلاء على الإطلاق. وإنما نقول: من تراه من العرفاء الشامخين والحكماء الإلهيين المشايعين لأهل بيت العصمة (عليهم السلام) يقول بالاتحاد أو الحلول؟! أو أي من هؤلاء يقول: «فانظر في حجرٍ...»؟! «قُلْ: هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ».

وغاية الأمر أن هذه الطائفة ترى أن لا وجود لغير الحق في مقابل وجود الحقّ (جلت عظمته)، ويقول قائلهم:

فبحقه .. ما إن تبدى لي جمال الحق

حتى غدا كل ما رأيته محض خيال

يقول:

كل ما يذكر ـ مما عداه ـ فهو دونه

ذلك أن اسم الوجود لا يطلق إلا على وجوده

أترى أن هؤلاء الرجال العظام ـ الذين يعبّر هذان البيتان عن لسان حالهم وخلاصة مقالهم ـ إنما كانوا يعبدون الجبل والبحر والشجر؟! وفي جوف الليل (حتى في آخر أنفاسهم على سرير المستشفى) أكانوا أمام الجمادات يذرفون الدموع، متهجدين بضراعة قائلين: «إلهي ... العفو»؟! إن العقل لشيء حسن .. يا هؤلاء!

سرّ شريف يتعلق بالموضوع

قال السيد الأجل، السيد على خان المدني الشيرازي (قدس الله سرّه):

«اسم الله الأعظم هو الذي افتتاحه (الله) واختتامه (هو)، ولا يكون معجماً، ولا تتغير[١] قرائته ، أعرب أم لم يعرب ـ وقد وقع في القرآن المجيد في خمس سور، وهي البقرة وآل عمران والنساء وطه والتغابن»[٢]. انتهى ما أردفنا نقله من كلامه.

قلت: وفي بعض الادعية: «يا هو، يا من هو، يا من ليس هو إلاّ هو».

قلت: يستقاد من كلام بعض الأعاظم أن المواضبة على أمثال هذا الذكر ـ مع الشرائط اللازمة ـ تفيد العبد شوقاً إلى الله (تعالى)[٣].

---

(١) في الاصل: لا يتغير.

(٢) الكلم الطيب: ٥٦.

(٣) حكى لي آية الله بهاء الديني ـ متعنا الله بطول بقائه ـ فقال: في إحدى السنين اجتاح الجراد مدينة قم، فجاء صاحب مزرعة إلى داخل البلدة، واستأجر عدة عمال لإزالة الجراد من مزرعته. ولما وصلوا إلى المزرعة استلقى أحد العمال هناك على الأرض، فاستاء صاحب المزرعة من فعلته هذه، وصاح به في انفعال: أهذا وقت الاستلقاء؟! ألا ترى إلى هذا الجراد؟! قال العامل: أتريد بكلمة ((هو)) أقولها، فينصرف الجراد؟ قال صاحب المزرعة: قلها. اعتدل العامل قاعداً في مكانه، وقال مرة واحدة: ((هو)) فذهب الجراد في الحال.

أقول لا تذهب بك المذاهب يا أخي العزيز، فليس هذا الكلام سوقياً. أنا وأنت .. لدينا مثل حالة العامل هذه. القضية صادقة ولا ريب. ولسان حال هذا العامل قول القائل: ((كل ما رأيته .. محض خيال)).

الملاحظة الثالثة

أوضحنا فيما مضى أن الحسين بن منصور الحلاّج لا يعنينا في بحثنا هـذا، لا نفياً ولا ثباتاً. ولا ريب أننا لسنا في صدد تشبيه الإمام(رضـوان الله تعـالى عليه) بالحلاّج، ولا في معرض المقارنة بين كلامهما. لقد قال الإمام قـصيدة، واستخدم فيها تشبيها ذكرنا مغزاه في فصل شرح المفرادات والمـصطلحات، يراجع إذا احتيج إلى مراجعة. وما سيؤتى به في هذا الفصل من موضـوعات فإنما يؤتى به لإكمال البحث ولتهيئة الأذهان لتفسير عبارة الإمام:

لقد فسرت بعض العبارات التي حكيت عن العرفاء، نظير «أنا الحـق» ومـا اليها، تفسيرات عديدة. نحن نكتفي هنا بذكر نوعين من التفسير.

التفسير الأول

يقال: إن مثل هذه الكلمات تصدر عن بعضهم في حالـة الغيبوبـة، وعنـد سكرهم بشراب محبّة الحقّ، ولا ينطقون بها في غير هذه الحالات.

قال اللاهيجي[1] ـ بعد أن أورد أبيات الشيخ محمود الشبستري التي يقول فيها:

---

(١) لكلام الشبسترى واللاهيجي تفسيران آخران غير ما ذكرنا. لكننا نكتفي هنا بمـا أوردنـاه في هذا الاستشهاد.

*«أنا الحق» هو كشـف مطــلق للأســرار

من تراه غير الحق [يحق له أن] يقول: أنا الحق؟!

إن كل ذرات العـــالم إنمـــا هي مثل منصـور

لك ان تعـــدها سكـــرى أو مـخمـــورة

*كلها دائـب على هذا التسبيـــح والتهـليـــل

وهي إنما قامت وثبتت بـسبب هـذا المـــعنى

قال: هذا إشارة إلى إن إفشاء السرّ لا يجوز في غير حالة السُكر والغيبوبـة المطلقة، أو في مرتبة الذهول حيث التنزّل عن الفناء والسكر. وأما في حالـة فقدان الهيمنة على النفس ـ من شدة خمار ذلكم السكر ـ فهو مما لا يجـوز. وهو ممّا تمنعه الشريعة والطريقة»[1].

التفسير الثاني

يقول الشبستري:

كل من خلا من نفسه، وصار كالخلاء

فإن «أنا الحق» يتبدّى صوتاً في داخله وصدى

---

(١) شرح روضة السرّ: ٣٦٩.

قال اللاهيجي شارحاً البيت: «القائلون بأن المكان الذي يتمكن فيه جسم هو خلاء، يفترقون إلى فرقتين؛ أحدهما فرقة الذين فسروا الخلاء بأنه لا شيء محض. والأخرى فرقة الذين عبّروا عن الخلاء بأنه مقدار مجرد من المادة. يقول [الشبستري]: إن كلا من هؤلاء صار كالخلاء (أي لا شيء محضاً، أو مقداراً مجرّداً من المادة)، وخلا من نفسه ووجوده وبلغ المحو .. فتبدى في داخله عندئذ (أنا الحق) صوتاً وصدىً. والصدى هو انعكاس صوت من جسم صلب يكون في مقابل المصوت، أي من أطلق الصوت. وهذا يعني ان (أنا الحق) الذي سمع في الحلاج وغيره كان صوت الحق ونطقه. وقد سمع في الحلاج وسواه عن طريق الانعكاس، فكان على هيئة صدى ظن أنه هو قائله. ومثل هذه مثل امرئ يطلق صوتاً عند جبل، فيُسمع هذا الصوت ـ بالانعكاس ـ من الجبل نفسه، فيحسبه الجاهل صوت الجبل»(١).

جواب اعتراض مفترض

لو قال قائل: إن التفسيرين اللذين أتيت بهما من (روضة السر) إنما يؤولان تقريباً إلى تفسير واحد فما معنى هذا الفصل بينهما والعزل؟

---

(١) شرح روضة السرّ:٣٧٥.

لقلنا: تقسيمنا هذا باعتبار نسبة القول إلى القائل في مورد، وسلب النسبة عن القائل تماماً في المورد الآخر .. فافهم.

تفسير عرفاني ونتيجة

لو استذكرت ـ أيها القارئ العزيز ـ الموضوعات السابقة في ذهنك جيداً، مستبعداً المعنى الشخصي للحسين بن منصور الحلاّج (وقد قلنا مراراً إن لنا شأناً بكلام الإمام لا بالحلاج)، وتوجهت إلى مفهوم التفسير الثاني[(١)]. ودققت في المعاني التي نوردها بعدئذ.. لبلغت الثمرة في تفسير كلام الإمام (عليه السلام).

يقول الشيخ البهائي (قدس الله سرّه) في كتابه النوراني النفيس (مفتاح الفلاح)، لدى تفسير سورة (الحمد): روي أنه [يعني الإمام الصادق (عليه السلام)] كان يصلي في بعض الأيام، فخر مغشياً عليه في أثناء الصلاة، فسئل بعدها عن سبب غشيته، فقال: ما زلت أردد هذه الآية حتى سمعتها من قائلها.

قال بعض العارفين: إن لسان جعفر الصادق (عليه السلام) كان ذلك الوقت كشجرة الطور عند قوله: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾[(٢)]. وما أحسن قول الشيخ الشبستري بالفارسية:

---

(١) متجرّداً من كل قيد.

(٢) سورة القصص:٣٠.

تُقْبَل «أنا الحق» من شجرة

فلم لا تقبل ممن أقبل عليه السعد؟![1]

ويلاحظ القراء الأعزاء هنا أن الشيخ البهائي كان قد التفت إلى إمكان تحقق ذلك ولا من صلة له بالحلاّج.

النتيجة النهائية

رأيت إذن تفسير العرفاء الثاني (الذي ينبغي التوجه إليه)، وفهمت رواية الشيخ البهائي الدالّة على إمكان تحقّق هذا المفهوم. وأضف إليهما الآن هاتين الآيتين من آيات القرآن الكريم: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[2] و﴿أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[3].

إن كل ذرات العالم هي ملك لله وطوع أمره. أجسادنا وأرواحنا وألسنتنا: ملك الله ومن جنوده.. والله قادر على كل شيء. فإذا كان الأمر كذلك أفيستبعد إذن أن يجعل الله القادر الرحيم لسان عبد صالح ـ في حالات

---

(١) ص ٢٩٥، الطبعة الحجرية. وص٢٩٣ ط بيروت. وقد اورد الشيخ البهائي الشعر بالفارسية وقد ترجمناه ولم نذكر النص الفارسي للبيت.

(٢) سورة الفتح:٤.

(٣) ورد هذا التعبير القرآني في عدّة مواضع من القرآن، منها الآية (٢٠) من سورة البقرة.

خاصة ـ موضع صوت ينطق؟[1].

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾.

تقرير فيه تحذير

ربما يخطر لأحد أن يسأل: لقد نطق الإمام الخميني (قدس سرّه) وهو فقيه كبير ومرجع ديني ـ بهذه العبارة في شعره. ونحن نعرف أن كبار العلماء، وخاصة المراجع ـ والإمام على وجه أخص ـ هم قدوة للناس في المجتمع تُحتذى. أفيجوز بعد ذيوع عشقية الإمام هذه ان يستخدم هذا المصطلح في أشعارهم؟

والجواب: أنه لا يجوز هذا لمن لم يكن مثل الإمام في شرائط القرب من الله، والسير في مدارج العبودية العالية، وطيّ المقامات العلمية، وبلوغ العرفان الحقيقي. وكما توحي التوضيحات السابقة، فإن مثل هذا المعنى لا يتأتى للمرء أن يقوله من عند نفسه، بل إنه يقول هذا المعنى وينطق به على لسانه.

---

(١) وبعد هذا كله لا نريد إلاّ القول إن مراد الإمام (رضوان الله عليه) هو: أن صوتاً جرى على لساني ، فالله (سبحانه) العالم بما قصد إليه. وما نريد قوله هنا هو أن مثل هذه المسائل ـ وفق تلكم التوضيحات. وبشرط لياقة العبد، وإذن الله ـ غير مستبعدة في المنظار العقلي والعلمي.

ومن يرد ـ بدون هذه الشرائط ـ أن يصطنع الألفاظ ليقول مثل هذا القول فإنه لن يجني إلاّ ظلمة الباطن والبعد عن الله.

ثمّة سؤال آخر قد يقوله قائل: قلت في شرح المصطلحات إن مقالة الحلاج نازلة منزلة المثل.. فكيف إذن لو أن أحداً، ليس في مثل حالة الإمام وشرائطه، يستخدم هذه المقالة كمثل من الأمثال؟

والجواب: أولاً: نحن لسنا على يقين أن الإمام قد استخدم العبارة على أنها مثل من الأمثال، فربما كان استخدامه لها ـ والله العالم ـ بمعنى تحقق الأمر في الواقع. ومهما يكن.. فنحن قد كنا في صدد تحليل ما في كلام الإمام من وجود الدلالة وقلنا في حينها: إن من الممكن أن يكون في هذه المصطلحات جنبة المثل أو جنبة الكناية.

ثانياً: لو افترضنا ان استخدام الإمام (قدس سرّه) للمصطلحات كان استخداما لمثل أو كناية، فإن هذا ـ وبالقياس إليه كعلم معروف. ذي مكانة عالمية، ومرجع ديني كبير ـ لا يحمل منه على محمل سوء (اللهم إلاّ من قبل العدوّ، الذي هو عدوّ على كل حال). وعلى هذا.. فما أجدر بالشعراء الأعزاء أن يجعلوا استعمال مثل هذه العبارات والمصطلحات خاصّة بمن هم من نمط الإمام ومن عياره.

قال وحيد عصره، وعزيز مصره الإمام الخميني (قدس الله نفسه الزكية):

غم دلدار فكنده است بجانم شررى

كه بجان أمــدم وشهره بازار شدم

وترجمته:

لقد رمى شوقــي إلى الحبيــب قلبي بالشــــرر

حتى شبعت من نفسي، وافتضح أمري بين الناس

شرح المفردات والمصطلحات

(غم) في اللغة بمعنى الحزن. وغالباً ما يرد في سياق الغزل بمعنــى حــب المحبوب والشوق إليه. وهو حزن لذيذ ينبعث من فرط المحبة. فــالغم ـ إذن ـ كناية عن العشق والحب.

«دلدار»: المحبوب، المعشوق.

«شرر»: ما يتطاير من النــار. وهــو كنايــة عــن شــدة الحــزن علــى فــراق المحبوب.

«بجان آمدم»: شبعت من نفسي.

«شهرة»: المشهور، المعروف، الذائع الصيت.

«شهره بازار»: تعبير عمن يعرف بين الناس بصفة، ويذيع أمره بين النـاس. (وبازار: بعني السوق).

يقول سعدي شيرازي:

وحـــب ســـعدي حـــديث تناقلتــــــه المجــــــالس
مـــا عـــاد ســـراً دفينـــاً أخفيـــه بـــين الهـــواجس

تفسير عرفاني

هذا البيت ناطق بحقيقة قائلة (أعلى الله مقامه الشريف)، ويـوحي بمحبّتـه الشديدة لله ولذوات المعصومين المقدسة (صلوات الله عليهم).. مما سنبيّنه ـ إن شاء الله (تعالى).

الحديث عن الحب بحر لا يحد، والكلام عليه لا انقضاء له.

وقد ألف كبار أهل العرفان والأولياء والعلماء ـ على امتداد القرون ـ كتباً مستقلة في الحبّ .. ما عـدا الأبـواب التـي عقـدوها فـي الكتـب الأخـرى لموضوع الحبّ؛ متحدثين فيها عن الآلف المعاني ودقائق الدلالات. والإتيان بأسماء هذه الكتب يخرج بنا عن صلب كلامنـا. وقبـل التوغّـل فـي تفـسير البيت، نجد من اللازم ذكر بعض النقاط:

النقطة الأولى: في بيان أصل الحبّ

لا نريد هنا ـ كما يدل هذا العنوان ـ البحث في حقيقة الحب وماهيته، وما يتصل به من القضايا، فهو بحث واسع دقيـق يحتـاج إلـى مناسـبة أخـرى. وسنذكر في هذا الفصل كلاماً موجزاً عن دوافع المحبة وأصولها، وبعض مـا أوردته ثلّة من العرفاء والعلماء من تعريفات للحبّ والمحبّة. ولا خفاء في أن جلّ هذه التعريفات هي أوصاف وعلامات للمحبة، وليست تعريفات بالمعنى العلمي. وان إطلاق «التعريف» عليها هو لون من التساهل في التعبير.

اعلم أن جذر المحبّة وأصلها هو إدراك ومعرفة كمال المحبـوب. وهـذه هي عصارة كلام الكبراء وخلاصة ما قالوه: فإن المرء إذا لم يدرك شـيئاً ولا يعرفه، فكيف يمكنه أن يتوجه إليه بالحب؟ وإذا كان الحـب تابعـاً للمعرفـة والإدراك، فـإن مراتـب المحبّـة ودرجاتهـا تغـدوا بنـسبة مراتـب الإدراك ودرجاته. ومن هنا كانت محبّة المعصومين (عليهم الـسلام) للحـقّ (تعـالى) أعلى محبة؛ لأن معرفتهم بالله أعلى معرفـة. يقـول أميـر المـؤمنين والأئمـة الطاهرون من ولده (عليهم السلام) في المناجاة الشعبانية: «وإن أدخلتني النار أعلمت أهلها أني أحبك». ونقرأ في (الزيارة الجامعة) وصفاً لهم: «التامّين في محبّة الله». والشواهد على هذه الحقيقة كثيرة في القرآن والأحاديـث، وكـلام أولياء الله.

قول الشيخ الرئيس ابن سينا

«أجل مبتهج بشيء.. هو الأوّل بذاته: لأنه أشد الأشياء إدراكاً لأشد الأشياء كمالاً، الذي هو بريء عن طبيعة الإمكان والعدم ـ وهما منبع الشرّ ـ ولا شاغل له»[1].

تذييل غريب

ذكرنا ان المحبة تابعة للإدراك والمعرفة. وهذا يفسّر سرّ المحبة الشديدة بين النبي الأكرم وأهل بيته الطاهرين (صلوات الله عليهم). ولبيان هذا المعنى الرفيع نورد في هذه الأوراق بضعة أحاديث، في هذا السياق، نشداناً للبركة واليُمن:

١ـ روى موفق بن أحمد الخوارزمي، الملقب بـ «أخطب خوارزم» ـ وهو من كبار علماء السنة، فقيه محدّث خطيب ـ في كتابه (المناقب) بسنده إلى عدد من كبار علماء السنة، فيهم محمد بن جرير الطبري.. أنه روي عن عبد الله بن عمر أنّه قال: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)[2].وقد

---

(١) الاشارات والتنبيهات٣: ٣٥٩.

(٢) هذا الحديث النوراني، رواه الأجل السيد على خان المدني الشيرازي (قدس سرّه) في أوّل كتابه (رياض السالكين) قبل البدء بأصل الكتاب.. بإسناد عجيب كلّ رجاله والد وولد (كلهم أجداد السيد علي) وبين رولية السيد ورواية الخوارزمي اختلاف يسير في اللفظ، سنشير إليه ـ إن شاء الله.

سأله: بأي لغة خاطبك ربك ليلة المعراج؟

فقال: «خاطبني بلغة علي ابن أبي طالب[1]. فألهمني أن قلت: يا ربّ.. خاطبتني انت أم عليّ[2]؟ فقال: ياأحمد، أنا شيء لا كالأشياء[3]، ولا أقاس بالناس، ولا أوصف بالشّبهات. خلقتك من نوري، وخلقت علي من نورك، واطّلعت[4] على سائر قلبك.. فلم أجد في قلبك أحب إليك من عليّ بن أبي طالب؛ فخاطبتك بلسانه كيما يطمئن قلبك»[5].

فإلى أين بلغت المحبّة؟! وأيّ مقام ذاك الذي يطمئن فيه صوت سلطان الولاية لطيف قلب سيد الكائنات ومولى الموجودات؟ إن هذا الحديث عزيزي القارئ لبحر من النور والأسرار.

*هذا الكلام الذي لا نهاية له.. الذي قيل في حسن الحبيب

إنما هو حرف صدر من بين آلاف العبارات

---

(١) رواية السيد: بلسان علي.

(٢) رواية السيد: بدون (أنت).

(٣) (ليس كالأشياء) في رواية السيد.

(٤) (اطّلعت) في رواية السيد.

(٥) مناقب الخوارزمي:٤٧، الطبعة الحجرية.

*بحر هو مجلس الملك، فاغتنم الوقت وابحث عن الدرّ

ألا فاعلم ـ يا من دلع لسانه ـ أن الوقت وقت التجارة

٢ـ روى ابن حجر المكيّ (وهو من علماء السنة، مشهور بتعصبه) أنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال في الإمام الحسن والإمام الحسين (عليهم السلام): «اللهم إني أحبهما، فأحبَّهما وأحِبَّ من يحبّهما»[١].

٣ـ أورد ابن الأثير الجزري (من أعاظم علماء أهل السنة) هذه الرواية في الصديقة الكبرى فاطمة (سلام الله عليها): «كانت إذا دخلت على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قام إليها، فقبلها وأجلسها في مجلسه. وكان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إذا دخل عليها قامت من مجلسها، فقبلته وأجلسته مجلسها»[٢].

٤ـ روى ابن الأثير أيضاً: «كان أحب النساء إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فاطمة، ومن الرجال علي»[٣].

٥ـ وروى ابن الأثير أيضاً أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بعث

---

(١) الصواعق المحرقة:٨٢.

(٢) جامع الأصول، ١٠: ٨٦.

(٣) المصدر نفسه، ١٠: ٨٢.

بعثاً (أي جيشاً) فيه علي (عليه السلام)، فرئي رسول الله قد رفع يديه وقال: «اللهم لا تمتني حتى تريني علياً»[١].

النقطة الثانية: في وصف محبة الله والمحِب بلسان أهل البيت (عليهم السلام)

قال الإمام الصادق (عليه السلام): «حبّ الله إذا أضاء على سرّ عبد أخلاه عن كل شاغل وكل ذكر سوى الله. (إلى أن قال): وقال أمير المؤمنين (عليه السلام): «حب الله نار لا يمر على شيء إلاّ احترق».

وقال (عليه السلام) أيضاً: قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): «إذا أحب الله عبداً من أمتي قذف في قلوب أصفيائه وأرواح ملائكته وسكان عرشه محبته؛ ليحبوه، فذلك المحب حقاً، طوبى له، ثُمّ طوبى له! وله عند الله شفاعة يوم القيامة»[٢].

نتيجة

يمكن القول إذن ـ واستلهاماً من المقدمات السابقة ـ أن المراد بـ «الشوق

---

(١) المصدر نفسه، ٩: ٤٧٦.

(٢) الفيض الكاشاني، المحجة البيضاء، ٨: ٧.

إلى الحبيب قد قذف روحي بالشرر» هو معنى الحديث الـذي أوردنـاه عـن أمير المؤمنين (عليه السلام): «حب الله نار لا يمر على شيء إلاّ احترق».

ويُقصد بتعبير: «ذاع خبري في السوق» ما تضمنه الحـديث النبـوي الـذي يقول: «قذف في قلوب أصـفيائه وأرواح ملائكتـه وسـكان عرشـه محبتـه؛ ليحبوه...» ذلك أن العبد إذا لم يكن محبوباً من الله (بالمعنى الواقعي) فانـه لا يكون محبوب قلوب الأصفياء وأرواح الملائكة وسكّان العـرش، ولا يغـدوا معروفاً مكشوفاً أمره بين الملأ. وعلى هذا تبدوا العلاقة بين الشطر الأوّل مـن البيت والشطر الثاني علاقة اللازم والملزوم. وربّما كان انطلق مـن الحـديث الأوّل ذلك الذي قال: «المحبة نار تحرق ما سوى المحبوب».

تذييل غريب للعارف والأديب

إن قوله «ذاع خبري في السوق» ليحمل معنىً دقيقـاً. ذلـك أنّ الحـبّ إذا تزايد وتعاظم صعب كتمانه وإخفاؤه.. وعندئذ يخاف على الـسرّ أن يتبـدّى ويبرز من خلف الأستار.

للشيخ شهاب الدين السهروردي المعروف بـ «شيخ الإشراق» المقتول سنة (٥٨٧هـ) قصيدة في هذا الاتجاه، نقدمها ههنا هدية نتحف بهـا قلـوب أهـل القلوب من أرباب العرفان والأدب:

أبـــداً تحـــن إلـــيكم الأرواح   ووصـــالكم ريحانهـــا والـــرّاح

وقلـــوب أهـــل ودادكـــم تـــشتاقكم ... والـــى لذيـــذ لقـــائكم ترتـــاح
وارحمــــــةً العاشـــــقين تكلفـــــوا ... ســـتر المحبـــة، والهـــوى فـــضاح
بالـــسر إن بـــاحوا تبـــاح دمـــاؤهم ... وكـــذا دمـــاء البـــائحين تبـــاح
وإذا هـــم كتمـــوا.. تحـــدث عـــنهم ... عنـــد الوشـــاة المـــدمع الـــسفاح
وبـــدت شـــواهد للـــسقام علـــيهم ... فيهـــا لمـــشكل أمـــرهم إيـــضاح
خفض الجناح لكـم، ولـيس علـيكم ... للصب في خفـض الجنـاح جنـاح
فـــإلي لقـــاكم نفـــسه مرتاحـــة ... والـــى رضـــاكم طرفـــه طمّـــاح
عـــودوا بنـــور الوصـــل غـــسق الجفـــا ... فـــالهجر ليـــل، والوصـــل صـــباح
صـــافاهم فـــصفوا لـــه، فقلـــوبهم ... في نورها «المـشكاة» و«المـصباح»
وتمتعـــوا.. فالوقـــت طـــاب بقـــربكم ... راق الـــشراب، ورقـــت الأقـــداح
يا صاح، ليس علـى المحـب ملامـة ... إن لاح فـــي أفـــق الوصـــال صـــباح
لا ذنـــب للعـــشاق إن غلـــب الهـــوى ... كتمـــانهم، فنمـــا الغـــرام وبـــاحوا
ســـمحوا بأنفـــسهم، ومـــا بخلـــوا بهـــا ... لمـــا دروا أن الـــسماح ربـــاح
ودعـــاهم داعـــي الحقـــائق دعـــوة ... فغـــدوا بهـــا مستأنـــسين وراحـــوا
ركبوا علـى سـنن الوفـا فـدموعهم ... بحـــرٌ، وشـــدة شـــوقهم مـــلاّح
والله مـــا طلبـــوا الوقـــوف ببابـــه ... حتـــى دعـــوا، وأتـــاهم المفتـــاح
لا يطربـــون بغيـــر ذكـــر حبيـــبهم ... أبـــداً، فكـــل زمـــانهم أفـــراح
حضروا ـ وقد غابت شـواهد ذاتهـم ... فتهتكـــوا لمـــا رأوه.. وصـــاحوا!
أفنـــاهم عـــنهم، وقـــد كـــشفت لهـــم ... حُجُـــب البقـــا. فتلاشـــت الأرواح

فتشبهوا ـ إن لم تكونوا مثلهم   إن التشبه بالكرام فلاح
قم يا نديم إلى المدام..فهاتها   في كأسها، قد دارت الأقداح
من كرم إكرام بدن ديانةٍ   لا خمرة قد داسها الفلاّح[1]

تفسير آخر

وكما قلنا في تفسير البيت الأوّل.. فإنه يمكن هنا أن يقال: إن المراد بـ«الشوق إلى الحبيب» هو شدة الاشتياق إلى رؤية وجه الله. الإمام ولي الأمر (صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين).. ولسان حال الكبراء ـ من أمثال الإمام (رضوان الله تعالى عليه) هذه العبارات:

«ليت شعري؛ أين استقرت بك النوى؟! بل أي أرض تقلك أو ثرى؟! أبرضوى.. أم غيرها أم ذي طوى؟! عزيز عليَّ أن أرى الخلق ولا ترى، ولا أسمع حسيساً ولا نجوى».

---

(١) هذه الأبيات نقلناها من (وفيات الأعيان) لابن خلكان ٦: ٢٧١. وذكرتها مصادر أخرى أيضاً كلّها أو بعضها. وأظن أن ما أوردناه هو أصح رواية لهذه الابيات التي نقدمها لعشاق المعارف. ومما يقوّي هذا الظن أنّ طبعة (الوفيات) التي لدينا هي أضبط الطبعات. وقد حدثتني نفسي أن أترجم هذه القصيدة إلى الفارسية. لكنّي وجدت أن ترجمتها هذه لا تولد غير مجموعة من الأفكار الغامضة، فلا تؤتى المعاني حقّها. فلابد إذن من أن يصار إلى شرح علمي دقيق يكون رسالة قائمة بنفسها. ممّا جعلني أصرف النظر عن هذا الأمر.

*لا أحد يسقي الشاطر الظامئ كأساً

لكأنّما الذين يقدرون قدر الولي.. غادروا هذه الولاية

*في ليلتي الحالكة هذه.. ضاع طريق المحبوب

فاطلع ـ من زاوية ـ يا كوكب الهداية

*يا شمس الطيبين.. إن أعماقي لتغلي

ألا.. فضمّيني إليك ساعة، في ظل الحماية

تبصرة

اعلم ان محبة الله والأولياء والصلحاء، ومحبة الأعمال الصالحة.. كلها من سنخ واحد ومن جنس واحد.

ملاحظة عظيمة شريفة

وبناء على هذا، فإن الكل محب الحقّ (جلّت عظمته). يقول سيد السّاجدين وفخر العابدين على بن الحسين (صلوات الله عليهما) في أول دعاء من الصحيفة السجادية: «وبعثهم في سبيل محبته»[1]. ولكن الناس

---

(١) في شرحه على الصحيفة السجادية (على منشئها ألف صلاة وتحية) المسمى بـ (رياض السالكين)، يرى الأجل السيد على خان المدني أن الإضافة في ((محبته)) هي من باب إضافة المصدر إلى المفعول.

أخطأوا حظهم وأضاعوا نصيبهم، فيقال لهم: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾[1].

قال الإمام المجدد (أعلى الله مقامه السامي):

در ميخانه گشائيد برويم شب وروز

كه من از مسجد واز مدرسة بيزار شدم

وترجمته:

افتحوا الباب الحانة في وجهي ليلاً ونهاراً

فقد جزعت من المسجد ومن المدرسة

مفردات البيت وعباراته واضحة من الوجهة اللغوية والأدبية، وما بها من حاجة إلى البيان والإيضاح.

مقدمة بين يدي التفسير العرفانيّ

لا ريب أن قراء هذه الأوراق التي كتبتها مبعثرة هم أرفع من أن أوضح لهم طائفة من الموضوعات البيّنة المكشوفة. لكن.. ما عساني صانعاً من إزاء ما

(١) سورة الاحقاف: ٢٠.

كنت قلته آنفاً من (ان الجاهل يستجر المرء إلى الكلام)؟! فالكلام هنا ـ إذن ـ غير موجه إلى أهل الفضل والمعارف والأدب. وما هذه المقدمة إلاّ حصانة ممّا يحتمل أن يلقيه بعض الشياطين من وسوسة في صدور عوامّ المؤمنين.

اعلموا ـ يا أعزتي المؤمنين الصالحين من محبي الإمام (رضوان الله عليه) ـ أن لكل لون من ألوان المعرفة لغة خاصة ومصطلحات معيّنة، ولكل علم من العلوم اصطلاحاته وتعبيراته الخاصّة به.. بحيث أن من لا خبرة له بهذا العلم أو بهذه المعرفة لا يكون في وسعه إدراك هذه المصطلحات، وربّما لا يفهم الأمور على وجهها الصحيح، فيحمله هذا على أن يكيل لأهل العلم والمعرفة ما لا يجوز من التهم، إن الجهل بمثل هذه الرموز والمصطلحات هو الذي فع فوق رؤوس الكبراء ـ على طول التاريخ ـ سياط التكفير.. وما يزال[1].

---

(١) ينبغي القول بهذا المعيار ضمن حدّ الاعتدال وطبقاً لموازين الشرع والعقل وهما متطابقان دوماً، فالشرع عقل من الخارج والعقل شرع من الداخل؛ ولكن هذا القول لا يعني أن نقبل بكل ما يقوله أي مدّع لأنه من أهل الفن. دونما تحقيق ونقول انه قال حقّاً لكننا نحن لا نفهم!! فلقد شنَّ مثلا الحكيم الإسلامي الكبير صدر المتألهين الشيرازي المعروف بملا صدرا.. وهو من كبار العرفاء إضافة إلى مقامه الفلسفي السامي ـ شن هجوما عنيفاً في كتابه (تحطيم أصنام الجاهلية) على بعض عبارات وتشدّق أدعياء العرفان وتأويلات الجهلة المدعين للمعرفة والتصوف واعتبرها محرّمة شرعاً؛ إذن فإذا كان الانسان من أهل الفن والخبرة فلا يصعب عليه الأمر، وإذا لم يكن منهم فليصمت وليرجع لأهل الخبرة.

وينبغي الالتفات إلى أن الذين أساءوا التعامـل مـع مـصطلحات الكبـراء ينقسمون إلى فصيلتين:

الأولى ـ فصيلة المتظاهرين بالقداسة المتخشِّبين، الذين يقيمون في الجهل المركب وهم لا يعلمون. أما إذا عرف أحدهم ثلاثة ألفـاظ عربيـة أو بعـض المصطلحات العلمية.. فيااللغوث منهم، لما يوردونه على الإسـلام والمعرفـة من المخاطر والأضرار! إن هؤلاء لمحجوبـون عـن إدراك عظمـة الإسـلام، ومحرومون من فهم حقيقة شريعة سيد المرسلين (صـلوات الله عليـه وآلـه). وهذا موضوع يطول بسطه، والحديث عنه يتطلب رسالة منفردة.

الفصيلة الثانية ـ فصيلة المتشيطنين، الجهلـة المتحللـين، الـذين يلعبـون بكلمات الكبراء. والذين إذا أرادوا أن يضلوا أحداً ليحملوه على إساءة الظن بالأعاظم، فإنهم يحملون كلماتهم على محامل سـيئة. وقـد يـشبثون بـبعض ألفاظ الكبراء ومصطلحاتهم، ويتّخذون منها ذريعة لما كانوا قد تردَّوا فيه من التحلّل والانفلات.

حينما يستخدم أحد الأعاظم لفظة مثل «الخمرة» و «الحانة» في شعره، فما قصده ـ نعوذ بالله ـ هذا الشراب الـواقعي، أو الحانـة المعهـودة المعروفـة. ونظيرها المصطلحات والتعبيرات الأخرى، من طراز «جزعت من المـسجد». ولقد نص بعض الكبراء أن مراده مـن هـذه الألفـاظ غيـر معناهـا الـواقعي

واللغوي. يقول السهروردي في قصيدته التي ذكرناها:

قم يا نـديم إلـى المـدام.. فهاتهـا فـي كأسـها، قـد دارت الأقـداح

مـن كـرم إكـرام بـدن ديانـةٍ لا خمـرة قـد داسـها الفـلاّح

أو الفقيه العارف الأخلاقي الكبير المرحوم الملا أحمد النراقـي (رضـوان الله تعالى عليه) الذي له أشعار فاتنه يذكر فيهـا ألفاظـاً مـن مثـل: الخمـرة، والحانة.. ذكراً كثيراً. وهو يصرح في بعضها بما ينشده من وراء هذه الألفاظ.

يقول في أحدى قصائده المثيرة:

*نـاولني ـ أيهـا الـساقي كأسـاً علـى ذكـر الحبيـب

ولا إثـم عليـك؛ فإنمـا هـي علـى ذكـر الحبيـب

أنـا لابـس المرقّعـة.. كـلّ مـا عنـدي هـو مـن روح الحبيـب

عـارٌ ـ إذن ـ علـى طيلـسان قيـصر وعلـى قلنـسوة كيخـسرو

واخجلتـاه مـن الفقـر إذا قايـسته بخزائن مدينة أصفهان وملـك الـريّ

* إلى متى ـ يا قلب ـ تقصد مدرسة الخزعبلات والتُّرهات؟!

استمع ـ ولو يومين فقط ـ إلى حديث الحبيب من ناي القصب

*لا تتحدث أيها الواعظ عن الجنة والقصور والحور

فإنّ نفوسنا توّاقة للهوى والهيام

*أنا عندليب الروضة المقدسة

التي هي في منجى من رياح الخريف وبرد الشتاء

*«إذهب أيها الزاهد، فلماذا تذمّ الثّمل بالناي؟!

إنما سكره من صفاء روح الحبيب. لا من الخمرة»[1]

تفسير عرفاني

قال صاحب الكشّاف: «الحانة: باطن العارف الكامل الذي يغلب فيه الشوق والوجد والعوارف الإليهة»[2].

يقول كاتب السطور: يبدوا لنظري القاصر أن المراد بالحانة هو كثرة اللوامع التي تحدثنا عنها مختصراً لدى تفسير البيت الأول. تلكم اللوامع التي تبدو للسالك في بداية سلوكه بصورة وصل وقطع. وبعدها تحصل حالة الطمأنينة التي هي في اصطلاح العرفاء، مقام الوصول.

وتأسيساً على هذا التفسير، فإن «المسجد» و«المدرسة» كناية عن حال من قبل «إرادة» السالك حيث يلتمس العثور على أول مفتاح.

---

(١) خزائن: ٢١٩.

(٢) ج٢، ص١٥٦٣، طبعة كلكتّه.

ولأن هذه الحالات (أي حالات ما قبل الإرادة) لا تطلب لـذاتها، وإنمـا تطلب بالعرض، جاءت لفظة «جزعت» كناية عن هذا الطلب بـالعرض. والله أعلم لضمائر عباده[1].

تفسير البيت بعبارات أخرى

يمكن القول: إن لب الكلام هو أن المقـصود بـــ (الحانــة): «مقـام قـرب النوافل»، حيث تكون العبادات، في هذا المقام، توأماً للروح والحقيقة تمامـاً. وهذا تعبير عن أنّها كاشفة عن محبّة العبد للحقّ (جلّت عظمته). والمكشوف عنه وجود تلك المحبة نسبة إلى تلك العبادات. وكما سـبق أن ذكرنـا، فـإن تحقيق هذا المقام لا يتأتى بدون الاستمداد والاستضاءة من مـشكاة الولايـة. وكم ثمة من ساذج مسكين ما إن يجد عبارات حول العبادات أو يسمع بهـا، إلاّ ويأخذه الفرح، غافلاً عن شرطي «كاشفية العبادات» و«الاستضاءة بمصباح الولاية». سرْ يا هذا؛ فإن «السائر على غير هـدى لا تزيـده سـرعة الـسير إلاّ بعداً»:

ولــولا ســليمان، وإصــبع كفــه   لما كان مـن شـأن لفـصٍّ بخاتمـه

(١) يقول بعضهم: ان المقصود بالمسجد والمدرسة بلسان القوم: القيود والتعلقات.

وبعد بلوغ هذا المقام ـ على طباق الروايات المعتبرة عن أهل بيت الوحي والعصمة (صلوات الله عليهم)، يغدو الحقّ (تعالى) عين العبد وأذنه.. عينه التي يبصر بها، وأذنه التي يسمع بها.. فهل ثمّة لذّة أرفع وأروع من يبصر بهذه العين، وأن يسمع بهذه الأذن؟!

لاحظ إذن أصل المحبة، وأن المراد بـ (الحانة) هي هذه المحبة وثمراتها التي هي الشوق والوجد والابتهاج. وهذا كلّه ـ سواء أكان باعتبار البداية، أم كان باعتبار النهاية والوصول ـ مندرج في «قرب النوافل» الذي يؤول إلى ذلكم السمع والبصر.. حيث تحصل في هذه المرتبة لذّة التمام وشرب المدام.

ووفق هذا المعنى يمكن تصور معنيين في تفسير «المسجد» و«المدرسة»، وهما:

الأول ـ ان المقصود بالمسجد والمدرسة: العبادات المنسلخة من الشرائط المذكورة، فهي لقلقة لفظية (قيل وقال) لا توصل إلى ثمرة و لا إلى إقبال.

الثاني ـ أن المراد ـ كما أشرنا من قبل ـ مقدمات الأمر الأولية. أي مقدمات ما قبل «الارادة» التي منها ما يوصل، ومنها ما لا يوصل. وتعبير «جزعت» كناية عن الاستغناء عنها.

«جزعت عن المدرسة». تفسير أخر مستقل[1]

أشير ـ فيما سلف ـ إلى الجهلة من قاصري الإدراك الذين لا يفهمون كلام الكبراء، فيخرجونه عمّا وضع له، ويحرفون معانيه عن مواضعها، ثُمّ يروحون يقلدونهم ويتصرفون بكلامهم دون أن يدركوا مقاصدهم.

وهنا نأتي بمثال لموضوع بحثنا، ليزداد المعنى جلوة ـ بإذن الله ـ مثلاً يجدون البهائي يقول:

علم حروف.. كله «قيل وقال» ... ما به روح ولا يبدع حال

ليس علماً غير علم العاشقين ... ما عداه وهم إبليس اللعين

أيها القوم الذي[2] في المدرسة ... كل ما حصلتموه وسوسه

أو يقول:

أنت كم ترجو الشفا من الشفا[3] ... وبكأس السم ترجو المسعفا؟!

---

(١) هذا الموضوع نافع لكافة القرّاء، وخاصة لطلبة العلوم الدينية.

(٢) حق التعبير أن يقال: ((القوم الذين)). أو ((القوم الأولى)) فيظل وزن الشعر مع هذه الثانية على استقامته. ويبدوا ان الشيخ البهائي قد جاء ((بالذي)) لأمر مقصود وإلا فهو العالم العربي المؤلف الضليع بالعربية.

(٣) المراد به كتاب «الشفاء» لابن سينا.

أو يجدون حافظاً يقول:

لو كنت وميلـي.. فاغـسل ورقـك؛ مــا فـــي الــدفتر علــم العـــشق!

ومثل هذا الكلام ربما يستغله أناس لا معرفة لهم فيوجهونه الوجهـة التـي يهوون. وثمة ـ غير هذا النمط من الأشعار ـ حكايات طريفـة عـن حـالات بعض العرفاء، وردت في المصادر التي دونت أطرافاً من سيرتهم.. قد جـيء بها في تلكم المصادر وكأنها «مقبِّلات» أو «مشهيات» تزين ما ورد فيهـا مـن مباحث. ومن هذه الحكايات: ما يذكره «جـامي» حـول «شـمس التبريـزي» و«مولانا»[1].

«يروي بعضهم: أنه لما وصل شمس الدين إلى (قونية) للقاء مولانا.. دخل مجلسه وهناك وجد مولانا جالساً عند حوض مـاء، وبـين يديـه عـدد مـن الكتب. سأله شمس الدين: ما هذه الكتب؟ فأجابه مولانا: ما شأنك بكتـب لا تحكي غير لقلقة اللسان (قيل وقال)؟! عندئذ مـدّ شـمس الـدين يـده إلـى الكتب، وألقاها في الحوض. فقال مولانا آسفا: ماذا صنعت أيهـا الـدرويش، بعض هذه مدَّونات والدي، قد تلفت؟! مدّ الشيخ شمس الدين يده في الماء، وأخذ يخرج الكتب واحداً واحداً.. فما كان الماء قد أثر في شيء منها! قـال

(١) مولانا: هو جلال الدين الروميّ الأديب الصوفي الشهير

له مولانا: ما هو السرّ؟ أجاب الشيخ شمس الدين: هذا ذوق وحال ما أدرك به؟! بعد هذه الواقعة توثقت بينهما الرفقة والصداقة»[1].

دعونا الآن من الفهم الأعوج أو الاستغلال لبعض هذه الكلمات ممّا يكون مصداقاً لقول أمير المؤمنين (صلوات الله عليه): «كلمة حقّ يراد بها باطل».. ولننظر إلى ما كان يرمي إليه الكبراء من التفوه بعبارات مثل «علم حروف كله: قيل وقال» أو «ما في الدفتر علم العشق».

ولإضاءة هذا الجانب ينبغي إيلاء الموضوع التالي مزيداً من الدقة والاهتمام:

رأيان في بلوغ المعارف الإلهية العالية

منذ القديم احتدم النقاش بين طائفتين من علماء الإسلام (يعبر عنهما أحياناً بـ «العقليين» و«الشهوديين») حول مسألة مفادها: أي طريق ينبغي أن يسلك لتكميل النفس الناطقة وفوزها بالمعارف الإلهية العالية؟ وكان هنا طريقتان:

أ ـ طريقة النظر [البحث] والاستدلال.

---

(١) نفحات الأنس: ٤٦٦ط، طهران.

ب ـ طريقة الرياضة والمجاهدة.

قال المحقق الجرجانيّ على هامش (شـرح المطـالع): «اعلـم أنّ الـسعادة العظمى والمرتبة العليا للنفس الناطقة، هي: معرفة الصانع ، بما له من صفات الكمال المنزّه عن النقصان، وبما صدر عنه من الآثـار والأفعـال فـي النـشأة الأولى والآخرة، وبالجملة معرفة المبدأ والمعاد. والطريق إلى هـذه المعرفـة من وجهين:

أحدهما: طريق أهل النظر والاستدلالات.

وثانيهما: طريق أهل الرياضة والمجاهدات.

والسالكون للطريقة الأولى إن لاالتزموا ملّة من ملل الأنبياء (عليهم السلام) فهم المتكلمون، وإلا فهم الحكماء المشاءون.

والسالكون للطريقة الثانية إن وافقوا في رياضـتهم أحكـام الـشريعة فهـم الصوفية المتشرعون[1]، وإلاّ فهم الحكماء الإشراقيون. فلكل فرقة طائفتان».

(١) خُلق العالم ـ ولا مراء ـ للمعرفة والعرفاء الواقعيون هم الأتباع الحقيقيون لأهـل بيـت الوحي والعصمة (صلوات الله عليهم). ومن كان عبداً لله فلا يعنيه أمر الأسـماء والألقـاب ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم﴾. وهدف السير والسلوك التجافي عن التقيّـد بالأسـماء، والنأي عن العناوين، لا أن تتحول إلى قيود تكبل الإنسان وتستعبده.

مضمون الطريقة الثانية

في البدء، أرجو من القارئ العزيز ملاحظة هذه النقاط:

١ـ إنّ طبيعة البحث في هذه الرسالة متّصلة بالطريقة الثانية ممّـا يعنـي أنّ سننصرف عن الخوض التفصيلي في النظرية الأولى.

٢ـ ان المعنيين بأصحاب النظرية الثانية هم المعتدلون منهم.

٣ـ لن نتطرق في هذا البحـث إلـى موقـف العرفـاء مـن مبحـث العقـل الجزئي،ومسألة التقابل بين الحبّ (العشق) والعقل، ولواحق هذه القضايا.

نستأنف الآن الحديث عن جوهر الموضوع.. فنتحدث عن مـراد أصـحاب الطريقة الثانية، أي طريقة الرياضة والمجاهدات.

يقول مولوي:

أرجـــل أصـــحاب الدليـــــــيل.. صـــنعها مـــن خـــشب
ثبـــــاتها متـــــــزلزل قريـــــــــبة للعطــــــــــب

إن قائل هذا الشعر من رجال الطريقة الثانية البارزين، وأحد مفكّري العالم الإسلامي. وقوله الذائع هنـا معبّـر عـن موقـف أصـحاب طريقـة الرياضـة والمجاهدة، وقد صار عنوانا لهم ومعلماً بارزاً.

إن الإنسان ـ بالفطرة ـ ملتزم بالاستدلال والبرهـان. أي ان فطرتـه تجعلـه

يطاوع البرهان ويسلم له.. ﴿فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ﴾[1]. وكما يقول العلاّمة الكبير السيد الطباطبائي (قدس الله لطيفة وأجزل تشريفة) فـ «الإنسان غير قادر على إبطال علومه الفطرية». قد يخطئ المرء وقد ينحرف، لكن هذا لا يعني إبطال حكم الفطرة. إنّه إتباع لهوى النفس، أو الخطأ في التطبيق.

والآن.. أترى أنّ علماء ومفكرين من مثل (مولانا) كانوا يخالفون نداء الفطرة؟ أم أنه ما كان للبرهان والاستدلال من وزن؟ أكان مولوي يناهض العلم ويخالفه؟ فلِم يقول إذن:

خاتم الملك السليماني علم	كل ما في عالم التكوين علم
أعيت الإنسان عجزاً وكلل	خلقة البحر وإبداع الجبل

أو يقول:

العلم بحر ما له ساحل	وطالب العلم كغواص بحر

أم ترى أن الشيخ البهائي كان في خصام مع المدرسة والدراسة والكتاب حين قال: «علم حروف كله قيل وقال»؟! وإذن كيف نفسر تأليفه لكتب أمثال

(١) سورة الروم: ٣٠.

«مشرق الشمسين» و«الكشكول» و«الصمدية»؟

وبالقياس إلى الإمام.. لم يقول: «جزعت من المسجد ومن المدرسة»، وهو الذي أنفق عمراً طويلاً بدراسة الفقه وأصول الفقه وعلم الكلام والفلسفة، وألف في مباني الفقه وسواه[1]؟!

---

(١) يقول الإمام الخميني (قدس سرّه) في شرح دعاء السحر (ص٧٣، ط بيروت):

((ولا يذهبن بنور علقك الشيطان، ولا يلتبس عليك الأمر حتى تقع في الخذلان؛ فإن الشيطان يوسوس في صدور الناس باختلاط الحق بالباطل والصحيح بالسقيم. فربما يخرجك عن طريق المستقيم بصورة صحيحة ومعنى السقيم، فيقول: ان العلوم الظاهرية والأخذ بكتب الظاهرية (كذا) السماوية ليس بشيء، وخروج عن الحق. والعبادات القالبيةو المناسك الصورية مجعولة للعوام كالأنعام وأهل الصورة وأصحاب القشور وأما أصحاب القلوب والمعارف فليس لهم إلاّ الأذكار القلبية والخواطر السرية، التي هي بواطن المناسك ونهايتها، وروح العبادات وغايتها، وربما ينشد لك ويقول:

إلى غير ذلك من التلبيسات والتسويلات. فاستعذ منه بالله . وقل له : أيها اللعين.. هذه الكلمة حق تريد بها الباطل؛ فإن الظاهر المطعون هو الظاهر المنفصل عن الباطن، والصورة المنعزلة عن المعنى.. فإنه ليس بكتاب ولا قرآن. وأما الصورة المربوطة بالمعنى، والعلن الموصول بالسر.. فهو المتّبع على لسان الله ورسوله وأوليائه (عليهم السلام). كيف، وعلم ظواهر الكتاب والسنة من أجلّ العلوم قدراً وأرفعها منزلة، وهو أساس الأعمال الظاهرية والتكاليف الإلهية والنواميس الشرعية والشرائع الإلهية والحكمة العملية التي هي الطريق المستقيم إلى الأسرار الربوبيّة والأنوار الغيبية والتجلّيات الإلهية. ولولا الظاهر لما وصل سالك إلى كماله، ولا مجاهد إلى مآله)).

الجواب

من المسلم أن الكبراء الذين أتينا بأسماء نماذج منهم لا يخالفون العقل والعلم والاستدلال والبرهان؛ ذلك أن مخالفة النطق والبرهان إبطال لحكم الفطرة، وهذا محال خارج عن عهدة الإنسان، كما أشير من قبل. حتى إن بعض كبار أهل العرفان، والمحققين من أصحاب العرفان الشهودي والكشفي ـ معاصرين كانوا أم غير معاصرين ـ قد صرحوا بأن لا فرق بين المعلوم بالكشف وبين المعلوم بالبرهان إلاّ في الظهور والخفاء. وقالوا:

على صاحب الكشف ـ أن يكون قبل الكشف ـ متكلما أو فيلسوفاً .ويدل كلامهم أن الكشف إذا خالف البرهان يكون عرضة للتكذيب.

يقول كاتب هذه السطور: وجدت ـ بفضل الله (تعالى) ـ مباحث أخرى تتصل بالكشف والبرهان لبعض عظماء القوم غير ما أوردناه عن بعض الأكابر، نورد هنا شيئاً منها:

يقول العارف المحقّق الملقّب بـ «الشيخ الكبير» صدر الدين القونوي، في تفسيره لسورة الفاتحة، الذي أسماه (إعجاز البيان في تأويل أم القرآن):

«والمنقول عن أوئل الحكماء ـ وإن كانوا من أهل الأفكار ـ أنهم إنما كان دأبهم الخلوة والرياضة، والاشتغال على مقتضى قواعد شرائعهم التي كانوا عليها. فمتى فتح لهم بأمر ذكروا منه للتلاميذ والطلبة ما تقتضي المصلحة

ذكره ـ لكن بلسان الخطابة لا التقرير البرهاني. فإن لاحت عندهم مصلحة ترجِّع عندهم إقامة برهان على ما أتوا به وتأتى لهم ذلك ساعتئذ.. قرروه وبرهنوا عليه».

أقول: القونوي أحد كبار رجال العرفان الشهودي، وها أنت تراه قد أقرّ بوضوح التطابف بين الكشف والبرهان.

ملاحظة دقيقة

ربما يكون ما أريد قوله ـ قارئي العزيز ـ كالجملة المعترضة، لكنّها مكمّل للموضوع الآنف. وعلى أي حال فهي ملاحظة دقيقة (خذها وكن من الشاكرين).. وهي ان الشيخ العارف صدر الدين القونوي يقول: «... هذا حال أهل الأذواق ومذهبهم حيث يقولون ... وأما المتحصل لنا بطريق التلقي من جانب الحقّ ـ وإن لم يقم عليه البرهان النظري ـ فإنه لا يشككنا فيه مشكك، ولا ريب عندنا فيه ولا تردد»[1].

ومن هذا يبدوا أن المعلوم بالكشف ، إما أن يؤيده البرهان أو لا يؤيده. والأول هو الكشف الصحيح المقبول لدى الأكابر.

---

(١) اعجاز البيان: ١٢٠.

وللصورة الثانية (ما لا يؤيده البرهان) وجهان[1]:

الأوّل ـ كشف قام البرهان على خلافه. وهو الكشف الجدير بالتكذيب، كما ذُكر من قبل.

الثاني ـ كشف ما قام برهان على خلافه، كما ما ثمّة برهان على إثباته والحكم بصحته. وهذا على قسمين:

١ـ كشف لنا سابقة ذهنية (سلباً أو إيجابا) بالموضوع الذي يبينه الكشف. ولكن مدعي الكشف يخبر عن طارئ أو تغير وتبدل عرض لما كان له سابقة في أذهاننا. وفي هذه الحالة لا يغدو في وسعنا أن نجعل سابقتنا الذهنية برهاناً على خلاف هذا الكشف.. كما لا يكون في وسعنا ـ والحالة هذه ـ أن نصدقه.. إلاّ بعد البحث والتحقيق، وإلا أن يكون صاحب هذا الكشف من الأعاظم والأولياء؛ كما لو كنّا نعلم مثلاً أن زيداً من الناس كان قد ولد أكمه[2] لا يبصر.. ثُمّ يأتي مدعي الكشف ويقول لنا أنّه قد شاهد زيداً في كشفه صحيح البصر. أو أن يقول قائل: إن البلاء الفلاني سيزول في وقت كذا.

---

(١) ذلك أن ما لا يؤيده البرهان أعم مما قام البرهان على خلافه، أو ما لم نجد برهاناً يثبته. وهاتان الحالتان معاً غير مؤيّدتين برهانياً بالفرق الذي ذكرناه.

(٢) الأكمه: هو الذي ولد أعمى.

٢ـ كشف ليس لنا أدنى معرفة بموضوعه من قبل، ولا نعرف شيئاً عن حقيقته. وفي هذه لا يكون ثمّة مسوغ ولا من معنى لأن نقيم برهاناً على تصديقه أو تكذيبه، وعلينا في هذه الحالة أن نذر قول صاحب الكشف في بقعة الإمكان، ونختار إزاء قولته السكوت ـ اللهم إلاّ إذا وجدنا ما يصدقه أو يكذبه من طرق أخرى تكون قطعية عند العقلاء ومعتداً بها؛ فهذا في نفسه نوع من البرهان ولكنه ليس برهاناً نابعاً من علمنا بماهية ما يتعلق به الكشف، فافهم.

كلام صدر المتألهين في عدم مخالفة الكشف للبرهان

«إياك وأن تضن بفطانتك البتراء أن مقاصد هؤلاء القوم، من أكابر العرفاء، واصطلاحاتهم وكلماتهم المرموزة.. خالية عن البرهان، من قبيل المجازفات التخمينية، أو التخيلات الشعرية ـ حاشاهم عن ذلك.

وعدم تطبيق كلامهم على القوانين الصحيحة البرهانية والمقدمات الحقّة الحكمية، ناش عن قصور الناظرين وقلة شعورهم بها، وضعف إحاطتهم بتلك القوانين. وإلاّ فمرتبة مكاشفاتهم فوق مرتبة البراهين في إفادة اليقين. بل البرهان هو سبيل المشاهدة في الأشياء التي يكون لها سبب؛ إذ السبب برهان على ذي السبب. وقد تقرّر عندهم أن العلم اليقيني بذوات الأسباب لا يحصر إلا من جهة العلم بأسبابها، فإذا كان هذا هكذا، فكيف يسوغ كون

مقتضى البرهان مخالفاً لموجب المشاهدة؟! وما وقع في كلام بعض منهم: «إن تكذبهم بالبرهان. فقد كذبوك بالمشاهدة» معناه: إن تكذبهم بما سميت «برهانا» وإلاّ فالبرهان الحقيقي لا يخاف الشهود الكشفي»[1]. وسيأتي في صفحات مقبلة كلام الحكيم السبزواري في شرح قول مولوي:

أرجل أصحاب الدليل صنعها من خشب

ورأى هذا الفيلسوف الكبير في التطابق بين الكشف والبرهان.

سؤال مفترض

قد تقول: إنك لتؤول قول مولوي:

أرجل أصحاب الدليل صنعها من خشب[2]

بكلام فيلسوف هو الحكيم السبزواري، وترفق به عبارات من فيلسوف كبير آخر هو الملاّ صدرا .. مع الأخذ بنظر الاعتبار أن طائفة العرفاء وطائفة الفلاسفة بينهما علاقة تقابل، بل لعلهما قطبان متخالفان، وان للخصام بينهما

(١) الأسفار: ١٨٧ الطبعة الحجرية.

(٢) حمل بعض شراح المثنوي (مثل صاري عبد الله أفندي في الجواهر البواهر ٣: ١٠١) هذا البيت على البرهان الذي يقع في مقابله برهان الصدّيقين. غير إننا لن نخوض في هذا، لأننا ـ ولأمرٍ ما ـ نظرنا إلى البيت بهذا المنظار.

جذوراً ممتدة. فهل ترى أن الاستشهاد برأي هذين الفيلسوفين قد حسم مـادة الخلاف والخصام.. أم أن ثمة قضايا أخرى قد فاتتك معرفتها؟ ألم تكـن قـد قرأت طعنات (مولانا) المتكررة للفلسفة والفلاسفة؟ حيث يقول:

الفيلسوف الذي يعرّف لحناً

فإنما ينفخ دينه الحق

أو حيث يقول:

***الفيلسوف يتكلم على المعقولات الدانية**

لكن العقل يضل ماكثاً خارج الدهليز

***الفيلسوف يجحد بفكره وظنه**

فقل له أن يمضي وينطح الحائط برأسه

***الفيلسوف الذي ينكر حنين [جذع النخلة لما فارقها النبي]**

فهو أجنبي عن مشاعر الأنبياء

***الفيلسوف يذكر وجود الجن والملائكة**

في حين هو نفسه ملعبة بيد الشياطين

أو حيث يقول:

*الفيلسوف يقتل نفسه من فرط التفكير

فقل له: يا أعمى.. طريق الكنز وراءك!

*قل له: مهما ازددت سرعة في السير

نأيت عن مرادك كثير

* ﴿جَاهَدُوا فِينَا﴾ بهذا قد حكاها الملك

لم يقلها: «جاهدوا عنا».. أيا مرتبك!

والجواب

أوّلاً ـ إن العقل والاختلاف بين العرفاء والفلاسفة ليست له صلة شمولية مطلقة. نعم إن بعضا من العرفاء والفلاسفة ـ تماماً كما ذكر ـ يتقابلون في الموقف كقطبين متنافرين. ولكن علماء الإسلام ومفكريه العظام ـ سواء منهم العارف والفيلسوف والمتكلم والفقيه ـ لا اختلاف أساسيا وجذرياً بينهم.. إذ كلهم ينشدون هدفاً واحداً، وهو بلوغ الكمال، ومشاهدة جمال ربّ الأرباب وواهب العقول والألباب.

وعلى هذا.. فالعارف الكامل لا يستنكر البراهين الصحيحة للفلسفة. والفيلسوف الإلهي الكامل ينظر إلى العرفاء الحقيقيين بعين التوقير والتعظيم. والمتكلم المعتدل الكامل يعدّ «علم الكلام» تمهيداً للسلوك الباطني. وهكذا الشأن فيما يتّصل بالفقيه الكامل.

وهنا أجد من اللازم أن أورد كلاماً قيّماً للفيلسوف المتكلم المحقق عبد الرزاق اللاهيجي ـ الذي أسبغ عليه أستاذه وأبو زوجته صدر الدين المتألهين الشيرازي لقب «الفياض».

يقول الحكيم اللاهيجي في مقدّمة كتاب (گوهر مراد ـ الطبعة الحجرية ١٢٧٧هـ):

«ينبغي أن يعلم أن للإنسان إلى الله (تعالى) طريقين؛ أحدهما: طريق الظاهر، والآخر طريق الباطن. لكن طريق الباطن قادر على إيصاله إلى الله. وطريق الظاهر طريق قادر على تعريفة بالله. وبين التعرف والوصول طريق طويل. وإشارة لصعوبته، قيل عنه: طريق الباطن. في حين ليس في طريق الظاهر مثل هذه الصعوبة؛ لأن طريق الظاهر طريق الاستدلال. والاستدلال ممّا يقدر عليه كلّ عاقل.. حيث يقوده من الآثار إلى المؤثرات. وطريق الاستدلال سابق على طريق السلوك، وذلك أنّ من لا يعلم أنّ ثمّة «منزلاً» لا يمكن أن ينشد طريقاً يوصله إلى «المنزل».

وبعثة الأنبياء ليست من أجل الإرشاد إلى طريق الظاهر والاستدلال.. بمعنى أنّ وجود هذا الطريق مرهون بإظهار النبي له. ولو كان الأمر كذلك

للزم «الدور»[١]؛ لأنّ التصديق بالنبي على أنه رسـول مـن الله متوقـف علـى معرفة الله. إنّما عمل الأنبياء في الهداية إلى هذا الطريق هو من بـاب إيقـاظ النائمين. يوقظون النائم السليم البصر، فلا محالة أنّه سيبصر الأشـياء ببـصره. وهذا الموُقظ ليس له من دخل في بصر المستيقظ إلاّ أنه أيقظه. وقد يحـدث لأحد أن يستيقظ من تلقاء نفسه ويبصر الأشياء، فلا يكون اسـتيقاظه بإيقـاظ غيره له.

وكذلك .. فإن الناس في نوم الغفلة، ونسبة الغفلة إلى عين العقـل كنـسبة النوم إلى عين الحس. وعمل الأنبياء في هذا الـسبيل هـو أن يوقظـوا كافـة الناس من نوم الغفلة، ويمكن لأحد أن يفيق من تلقاء نفسه.

ثُمّ لما أفاق الناس من نوم الغفلة.. إذا أعملوا العقل الذي ظهر من حجاب الغفلة، أمكنهم أن يعرفوا الله باليقين. وإن لم يعرفوا الله بعد صحوتهم من نوم الغفلة، فسبب هذا أنهم لم يعملوا العقل. كما لو استفاق امرؤ من النـوم ولـم يفتح عينيه ليرى الأشياء. ولهذا لا يؤمن هـؤلاء بعـد بعثـة الأنبيـاء، وإيقـاظ

---

(١) الدور في عرف الفلاسفة هو توقف أمرين كل منهما على الآخـر، ممـا يعنـي توقـف الشيء على نفسه. مثل أن يكون (ألف) متوقفا على (باء) ومعلولاً له. و(باء) هو أيـضاً متوقـف على (ألف) ومعلول له. وهذا يستلزم أنّ (ألف) هو معلول لـ(ألـف) ومتوقـف علـى (ألـف). وتوقف الشيء على نفسه محال. ينظر: معجم العلوم العقلية.

الأنبياء إياهم. وقد سماهم الحقّ (تعالى) في كتابه المجيد: أهل الجحود والعناد. أي جحود ذلك الذي يعرف فيه المرء شيئاً، فيقول: لا أعرف! ولا محالة أن يكون معانداً ذلك المستيقظ الذي لم يفتح عينيه ليرى الأشياء، ثُمّ يقول: ما ثمّة شيء! ولهذا يقول عنهم القرآن المجيد، على سبيل التعجب في عدّة مواضع: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ؟!﴾، ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ؟!﴾. ﴿أفلا يتفكرون؟!﴾، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ؟!﴾ .. وما إليها. ولو لم يكن عقل الإنسان قادراً بمفرده على سلوك طريق الظاهر والاستدلال بالآثار على المؤثر، لكان مثل هذا التعجب مستبعداً.

وليكن معلوماً أن سلوك طريق الظاهر والباطن يعاكس أحدهما الآخر؛ لأن سالك طريق الاستدلال، يثبت الأشياء خطوة خطوة حتى ينتهي إلى إثبات السبب الذي لا سبب له. فهو ـ مثلاً ـ يثبت من مشاهدة الأثر أن له مؤثراً. وإذ يجد في ذلك المؤثر آثار المعلولية يقول: إن له أيضاً مؤثراً آخر. وعلى هذا القياس حتى ينتهي إلى إثبات المؤثر الذي ما فيه للمعلولية من أثر.

أما السالك طريق الباطن.. فإنه ينفي الأشياء خطوة خطوة، حتى يصل إلى الموجود الباقي الذي لا يتطرق له الفناء. فالسالك ـ مثلاً ـ يعلم بالدليل أن علة الأشياء وخالقها لا نقص فيه ولا حاجة على الإطلاق.. أي ما فيه آثار المعلولية. وعليه فهو ـ أي السالك ـ ينفي كل ما يجد فيه نقصاً وحاجة،

حتى يصل إلى الكامل الذي لا نقص فيه.. فلا يستطيع بعدها أن يصرف نظره عنه. وبطبيعة الحال فإنه يعادي كل ما يصدّه عن النظر إلى ذلكم الكامل، وتعكف همّته على أن ينفي عن نفسه هذا الصادّ، فيستغرق على الدوام في لذّة مشاهدة الكامل، وإذا لم يلتذّ بالملتذّ الذي هو عين ذاته، فماذا عساه ينال من سواه؟

وهذا اللذة هي التي يسمّيها الفلاسفة الإلهيون بـ«السعادة الحقيقية»، ويطلق عليها محقّقو الصوفية «الوصول والفناء»، وهي «قرة العين» للأنبياء والأولياء. والغرض من بعثة الأنبياء والرّسل دعوة الناس إلى هذا اللذة، وسوقهم إلى هذا المقام العظيم. وما لعقل أحد ـ كائنا من يكون ـ أن يستقل في سلوك هذا الطريق».

عبارات له أخرى جديرة بالتأمل

ويقول اللاهيجي في مقدمة كتابه هذا: «إعلم أن نوع الاختلاف بين العلماء في المعارف الإلهية منحصر في الفلاسفة والمتكلمين، ويفترق المتكلمون إلى معتزلة وأشاعرة. أمّا طريقة التصوف فما هي من هذه الأنماط؛ فإن الاختلاف بين هؤلاء (أي الفلاسفة والمتكلمين) إنما هو في سلوك طريق الظاهر ومنحى الاستدلال.. وما حقيقة التصوّف إلاّ سلوك طريق الباطن. وغاية أولئك تحصيل العلم، لكنّ غاية هؤلاء الوصول إلى العين. وقد استبان أن

طريقة السلوك الباطن مسبوقة بالسلوك الظاهر. وعلى الصوفيّ ـ والحالة هذه ـ إما أن يكون في بدء أمره حكيماً (أي فيلسوفاً) أو متكلماً. وإذا لم تستحكم له الحكمة والكلام ـ أي بدون استكمال طريقة النظر، سواء أكان وفق نظر العلماء أو بدونه ـ فإنه يكون من أدعياء التصوّف لاصطياد العوامّ وخداعهم. وليست العبرة في لفظة التصوف وكلمة الصوفي[1]. بل الغرض سلوك طريق المعنوية وطلب الوصول الحقيقي، والفناء عن غيره، والبقاء فيه.. وإلى هذا المقام وردت الإشارة بقوله [في الحديث القدسي]: «كنت سمعه وبصره».

ثانياً ـ ذكرنا فيما مضى أننا قد فسرنا شعر مولانا على جدّ الاعتدال (بصرف النظر عن الخلافات الأساسية بين العرفاء والفلاسفة). وقد رأيتم أنّ مفهوم البيت في هذا الحدّ المعتدل ممّا يرتضيه الكبراء فلاسفة كانوا أم عارفين.

ثالثاً ـ إنّ عمدة ما قصد إليه مولانا بالفلاسفة الذين طعن بهم.. هم إتباع الفلسفة الجافّة التي لم تستق من منبع الإسلام الصافي ـ أو قلما استقت منه.

---

(١) أشرنا في ما سلف إلى أن العبد يكون فوق الألقاب والعناوين. وإنما غرض العرفان أن يحرّر المرء من القيود والرسوم والقوالب، لا أن تستعبده.

وربما أراد بهم الملاحدة الذين لا يؤمنون بالدين ممّن يظهرون في المجتمع أحياناً تحت شعار الفلسفة. وهذا المعنى جليّ فيما قال: فهو لا يحرق الأخضر واليابس ـ كما قال، ويؤيد هذا أبياته الأخرى:

*فيلسوف شرح الموضوع على نحو آخر

فرد عليه باحث وطعن عليه

*وجاء ثالث. فطعن عليهما كليهما

ورابع راح ينزع الروح من شدة الطعن

*وكل من هؤلاء يدلي ببرهانه في هذا السياق

ليظن أنه هو وحده على الصواب

*والحقيقة أن هؤلاء كلهم ليسوا على حقّ

وان هذا القطيع كله في زيغ وضلال

*الحق مثل ليلة القدر.. مخفية في الليالي

لكي تظل أنت تمتحن هذه الليالي حتى الأخير

*ليلة القدر هي ليست كل الليالي ـ أيها الفتى

وهذا الليالي كلها ليست خالية من ليلة القدر

*تخيّر لك ـ أيها الدرويش ـ من بين أصحاب المرقّعات

فاختبر، وألزم منهم صاحب الحق

*إنه لأحمق من يقول: إن كل شيء حق!

وإنه لشقي من يرى أن الكل باطل

رابعاً ـ انك ترى فيلسوفاً كبيراً من عيار الملاّ صدرا ـ الذي يمكن اعتباره أكبر فلاسفة الإسلام ـ قد جمع، إلى منزلته في الفلسفة، مقاماً شامخاً في العرفان جعله بحقّ أحد كبار العرفاء، وقد عدم نظيره في إحاطته بالقضايا العرفانية.. أو قل له نظير. ولو كان الاختلاف بين العرفاء والفلسفة اختلافاً شاملاً لكن الملاّ صدرا وأقرانه في التناقض.

إنه ـ كما ذكرنا آنفا ـ لا اختلاف أساسياً بين الكبراء. وينبغي أن نتبين أي فيلسوف هذا الذي يناهض العارف؟ ومَن مِن العرفاء هو الذي يوجّه الطعنات إلى الفيلسوف؟ ولو كان مولانا معاصراً للملاّ صدرا لمد إليه ـ وعلى وجه اليقين ـ ذراع المودة، ولما تفوه إزاءه بكلمة ذم.

إن صدر الحكماء هذا فيلسوف كبير.. يعارض أشد المعارضة الغور في الفلسفة الجافّة الخالية من الروح، المقطوعة عن أسس معرفة أهل بيت الوحي والعصمة (صلوات الله عليهم)، والتي لا تعير اهتماما لاكتساب النور عن طريق الرياضة والمجاهدة، إنه يقول في مقدّمة كتابه (الأسفار ص٤

الطبعة الحجرية): «أني ربّما تجاوزت عن الاقتصار على ما هو الحقّ عندي واعتمدت عليه اعتقادي، إلى ذكر طرائق القوم..»

ويقول: إنه عمد إلى مباحث الفلسفة «لتشحيذ الخواطر بها، وتقوية الأذهان.. من حيث اشتمالها على تصورات غريبة لطيفة، وتصورات مليحة شريفة، تعدّ نفوس الطالبين للحق ملكة لاستخراج المسائل المعضلة، وتفيد أذهان المشتغلين بالبحث اطلاعاً على المباحث المشكلة». ويذكر هذا الفيلسوف الكبير أنّه قد أبان ـ في نقده هذه المباحث ـ ما فيها من نقاط الضعف.

إن صدر المتألهين يرى أن بعض المباحث الفلسفية لها جنبة طريقيّة، لا موضوعية. وأن غاية ما تفيد هي الإحاطة بأفكار أصحاب النظر والاطلاع عليها. وهذا الاطلاع وهذه الإحاطة مما يعد مقدمة «لحصول الشوق إلى الوصول.. لا الاكتفاء بانتقاش النفوس بنقوش المعقول أو المنقول؛ فإن مجرد ذلك مما لا يحصل به اطمئنان القلب وسكون النفس وراحة البال وطيب المذاق. بل هي مما يعد الطالب لسلوك سبيل المعرفة والوصول إلى الإسرار ـ إن كان [طالب العلم] مقتديا بطريق الأبرار، متصفاً بصفات الأخيار».

وقد أبدى هذا الفيلسوف الكبير استياءه من ادعاءات المتظاهرين بالعرفان ـ أو «ترّهات عوام الصوفية» حسب تعبيره. وانتقد بشدّة أقاويل المتفلسفين

غير الآخذين بحدود الدين. يقول في الصفحة نفسها: «واني لأستغفر الله كثيراً مما ضيعت شطراً من عمري في تتبّع آراء المتفلسفة والمجادلين من أهل الكلام وتدقيقاتهم، وتعلّم جربزتهم في القول، وتفننهم في البحث.. حتى تبين لي آخر الأمر ـ بنور الإيمان وتأييد الله المستعان ـ أن قياسهم عقيم، وصراطهم غير مستقيم. فألقينا زمام أمرنا إليه وإلى رسوله النذير المنذر. فكلّ ما بلغنا منه.. آمنّا به وصدقناه، ولم نحتل ان نخيل له وجهاً عقلياً ومسلكاً بحثياً. بل اقتدينا بهديه، وانتهينا بنهيه؛ امتثالاً لقوله (تعالى): ﴿مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾.. حتى فتح الله على قلبنا ما فتح، فأفلح ببركة متابعته وأفلح».

وقال بعد أسطر: «ولا تشتغل بترّهات عوام الصوفية من الجهلة. ولا تركن إلى أقاويل المتفلسفة جملة»[1].

---

(١) في كتاب (أصول التصوف: ٣٠ ط، طهران ١٩٥٩) نقل الدكتور إحسان الله الاستخري عن كتاب (فصل الخطاب) للسيد قطب الدين محمد النيريزي قوله: ((... ومنهم العالم العامل والفاضل العارف الكامل المولى صدر الدين محمد الشيرازي في تفسير القرآن وشرحه لكتاب (أصول الكافي)، وكتاب أسفاره، وكتاب (الشواهد الربوبية) وكتاب (الحكمة العرشية) وكتاب (أسرار الآيات) وبعض منظوماته، ولقد كان أستاذه أستاذ أستاذي وكثير من تصانيفه لدي وبعضها بخطه الشريف، ولكنّه لما كان في عصره الفيلسوفيون غالبين لم ير ولم يدر بدا إلاّ بأن يتكلم بألسنتهم،ولقد بين المعارف الإلهية التي للفقراء الإلهيين عن طريق منطق الفلاسفة وألسنة المتكلمين، ولا مشاحة في الاصطلاح.

ولعلك تعلم أن هذا الكلام ليس نسفاً للفلاسفة والعرفاء. إن هـذا الكـلام الصادر من فيلسوف وعارف كبير ـ صدر المتألهين ـ ليكشف عن حريّة فـي الفكر وعلوّ نظره في المعارف الإلهية، وعن تبحّره في الفلسفة الإسلامية. وهو يوجّه كلامه هذا إلى أولي الدراية، لا إلى العوام، أو سواهم ممـن لا اطـلاع لهم على المعارف الإلهية.

يقول الملاّ صدرا: عليك ان تعرف الغث من الـسمين، وتميـز المـاء مـن السراب، والقشر من اللباب. وما قد يقال له: فلسفة، وما هو منها فـي شـيء، إن المعارف الإلهية لهي غير الألفاظ والأقاويل والترّهات.

ويعتقد الملاّ صدرا أن المعارف الإلهية والـسعادة العظمـى لا تحـصل إلاّ عن طريق القرآن وتعاليم النبي وأهل بيته الطـاهرين (صـلوات الله علـيهم).. الذين هم حجج الله ومعادن رحمته، ومحالّ بركاته (تنظر مقدمة شرح أصول الكافي ص١ـ ٢ الطبعة الحجرية).

ومن هذا كله يتضح أن هؤلاء الكبراء لا يخـالفون البرهـان والاسـتدلال والمدرسة والكتاب رغم أن ما في ظواهر كلامهم ما ربّما يوهم بهذا المعنـى. ويكن تلخيص زبدة ما يقصدونه في هذه النقاط:

١ـ إن المعارف الإلهية وغوامض أسرار الربوبية لا تـدرك بالاسـتدلالات الواهيــة المهزولــة، ولا بالقياســات الــسقيمة والمغالطـات. يقـول الحكـيم

السبزواري عن «أرجل أهل الاستدلال الخشبية»: «يراد بأرجل أهل الاستدلال: الأدلة الجدلية الواهية، والقياسات القائمة على المغالطة.. التي يراد ان تبنى عليها العقيدة، فلا تثبت إزاء المباحث الحقّة، ولا تستهدي التقوى ولا تعليم الحقّ الذي يقول: ﴿وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ﴾[1]. **ويقول:** ﴿إَن تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً﴾[2].

أما الأدلة البرهانية للعقول المكتحلة بنور الله.. فإنها نعم الدليل ونعم القائد. وقال الله (تعالى): ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[3]، **وقال:** ﴿ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ﴾[4]. **ان البراهين الحقيقية هي نور البرهان الديان».**

٢ـ إن الإسرار ودقائق القرآن الكريم وأحاديث المعصومين (صلوات الله عليهم أجمعين) وما يرتبط بمقامات كبراء العالم هؤلاء وأسرارهم.. لا تنال عن طريق النحو والصرف واللغة والمنطق والفلسفة.. فثمّة ما ينحسر عنه العقل، كما يقول (تعالى): ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ

---

(١) سورة البقرة: ٢٨٢.

(٢) سورة الأنفال: ٢٩.

(٣) سورة البقرة: ١١١.

(٤) سورة النحل: ١٢٥.

يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَّسْتُوراً﴾[1] ـ هذا فيما يتصل بفهم أسرار القرآن.

أما ما يرتبط بأهل البيت (عليهم السلام) فإنّ سلطان الولاية (صلوات الله عليه) قد قال: «لا يستكمل أحد الإيمان حتى يعرفني كنه معرفتي بالنورانية»[2]. فلابدّ أن يكون المرء ـ إذن ـ من المحارم لكي يطّلع على هذه المعرفة. ولا تكون هذه «المحرمية» إلاّ بالتقوى وطهارة الباطن.

ولا خفاء أن الحجاب والحرمان.. وكذا الكفاءة و «المحرمية» إنما هي أعلى مراتب ودرجات حسب أنواع أسبابها وموجباتها.. فتأمل.

٣ـ ليست المدرسة والدراسة والكتاب غاية في ذاتها. وكما يقول العلماء.. ان الدراسة والكتاب لهما صفة طريقية لا موضوعية [أي: وسيلة لا غاية]. الدراسة والكتاب مقدمة لتحصيل العلم . والعلم بمعناه الحرفي الدالّ على المعرفة [أي: التعرف على القضايا والأشياء تعرّفاً ذهنيا] هو أيضاً ليس غاية في نظر العرفاء. العلم مقدمة وطريق للوصول إلى العمل. إنه نور يتولد في القلب على أثر العمل. وما العلم ـ في عرف أعاظم العرفاء إلاّ هذا النور «العلم نور». وهو بهذا المعنى غاية تطلب لذاتها.

---

(١) سورة الإسراء: ٤٥.

(٢) بحار الأنوار ١: ١٢٦.

٤ـ من عمل بعلمه من العلماء، عرج به علمه وصعد. وإلاّ تحوّل علمه إلى عبء ثقيل ينوء بحمله. وما أروع ما قال مولوي:

علوم أهل القلب حمّال — وعلم أهل الجسم أحمال

فإن يعش في القلب ينصرهم — وإن يعش بالجسم يثقلهم

أما وقد أحسنت حملاً، فالغد — يكفيك عن حمل له.. وتسعد

٥ـ إن لم يتحول العلم إلى عمل يكن اسمه في الدنيا: «قيل وقال»، وهو في الآخرة وزر ووبال.

وهذه الآيات وروايات في هذا المعنى

١ـ يقول الله (تعالى) في صدد هداية القرآن الكريم: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾. وربما يظن هنا أن هذا يستلزم الدور. أي إن من أراد أن يهتدي بالقرآن فعليه أن يكون ذا تقوى. ومن أراد أن يكون متّقياً فينبغي أن يتخذ القرآن له هادياً ودليلاً.

بيد أن هاتين الملاحظتين كفيلتان بدفع شبهة الدور وكسر نطاقه:

أ ـ إن للتقوى مراتب، ومن مراتبها المتدنية أن يستمع الشخص إلى القرآن في الأقل، أن يكون راغباً في الاستماع، أن يعقبه نوعاً من التأثر. وحسب التعبير المعروف: فإن «كرم الخلق» والنبل أحد مراتب التقوى.

في عصر نزول القرآن كان عدد من أهل الجاهلية ذوي كرم وأخلاق، فقالوا: أما وقد ادّعى هذا الرجل (أي النبي الأكرم) أن الوحي ينزل عليه.. فما يضرنا إذا استمعنا إلى بعض كلامه . ولمّا كانوا يسمعون كانوا يتأثرون بما استمعوا إليه. إن هذا القدر من الاستعداد أحد مراتب التقوى.

وفي وقائع التاريخ ما يدلّ على أن هذا المستوى من الاستعداد قد مهد سبل الهداية لكثيرين. وهؤلاء يختلفون عن ذلك الفظ العنيد الذي يفتقد أدنى مرتبة من التقوى، فإنه إذا سمع القرآن يُتلى لا يكفيه أن لا يستمع إليه. بل انّه يدعو غيره ليرتفع منهم الضجيج، فيطغى على التلاوة فلا تسمع: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾[1]. ومن المؤكد أن عنيداً شكساً مثل هذا لا يكون من المهتدين.

ب ـ أن المراد بـ «الهدى» هداية القرآن الخاصّة.. التي هي دقائقه وأسراره. وقد وصل إلينا، في هذا المعنى، روايات كثيرة عن المعصومين (صلوات الله عليهم)، نكتفي بذكر واحدة منها رعاية للاختصار.

يقول القرآن الناطق أمير المؤمنين (صلوات الله عليه): «إن الله (جلّ ذكره) ـ لسعة رحمته ورأفته بخلقه ـ ... قسّم كلامه ثلاثة أقسام: فجعل قسماً منه

---

(١) سورة فصلت: ٢٦.

يعرفه العالم والجاهل. وقسماً لا يعرفه إلاّ من صفا ذهنه ولطف حسه وصح تمييزه ممّن شرح الله صدره للإسلام. وقسماً لا يعرفه إلاّ الله وأنبياؤه والراسخون في العلم»[1] ـ الذين هم الأئمة المعصومون (عليهم السلام).

٢ـ ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾[2]. ومن يتدبر في مضمون الآية يجد المعنى المراد.

أما الأحاديث

١ـ قال أمير المؤمنين (صلوات الله عليه): «أيها الناس.. إذا علمتم فاعملوا بما علمتم؛ لعلكم تهتدون»[3].

فكّر ـ قارئي العزيز ـ في أسرار هذا الكلام النوراني:

ما أروع ما قال الشيخ الطاعن في السن للولد:

يا نور العين. إنك لن تجني إلاّ ما زرعت

٢ـ قال الإمام الصادق (عليه السلام): «لا يقبل الله عملاً إلاّ بمعرفة، ولا

---

(١) تفسير نور الثقلين ١: ٣١٣.

(٢) سورة التغابن: ١١.

(٣) أصول الكافي ١: ٤٥.

معرفة إلاّ بعمل»[1]. وهذا لا يقتضي الدور كذلك؛ فلعل المعرفة الأولى تعني الاعتقادات الصحيحة والعقائد الحقّة التي وصلت عن طريق الأنبياء والأئمة (عليهم السلام). وكلّ امرئ مكلف بأن يتعلم منها بمقدار قدرته الفكرية. أما المعرفة الثانية فهي تعني درجات المعرفة العالية التي تحصل بالعلم والرياضة والمجاهدة.

٣ـ وروي عنه (عليه السلام) أيضاً أنه قال لـ (عنوان البصري): « ليس العلم بالتعلّم، إنما هو نور يقع في قلب من يريد الله (تبارك وتعالى) أن يهديه. فإن أردت العلم ، فاطلب أولاً في نفسك حقيقة العبودية. واطلب العلم باستعماله. واستفهم الله يفهمك»[2].

توضيحات حول الحديث الثالث

في تفسير عبارة «فاطلب أوّلاً في نفسك حقيقة العبودية» يمكن تصور ثلاثة وجوه:

أ ـ قبل أن تفكر بالعلم .. فكر بالعبودية.

---

(١) أصول الكافي: ٤٤.

(٢) بحار الأنوار ١: ٢٢٥.

ب ـ اعمل بما تعلم من وظائف العبودية، وكن عبداً لله.

ج ـ ابحث عن نفسك عن حقيقة العبودية. وهذا المعنى الدقيق ناظر إلى البيت المنسوب إلى الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام):

دواؤك فيك وما تشعر ودواؤك منك وما تبصر

إذ البشر ـ بالفطرة ـ يعشقون الكمال وفي بحث عن محبوبهم وأن جوهر العبودية مستتر في باطن الإنسان. وقد أشرنا من قبل إلى قول الإمام سيد الساجدين (صلوات الله عليه) في أول دعاء من الصحيفة: «وبعثهم في سبيل محبته» وذكرنا أن العلامة الكبير السيد علي خان المدني الشيرازي (قدس سرّه)، قد قال: إن إضافة المحبة إلى الضمير هي من باب إضافة المصدر إلى المفعول. فيكون مفاد عبارة الصحيفة: أن الله تفضل على عبادة بمحبتهم له، أي إن العباد يحبون الله بالفطرة.

كم تمنى القلب لو يملك يوماً «جام جم»[١].. فيصيب

عجباً.. يطلب موفوراً ـ وفي طوع يديه ـ من غريب!

---

(١) جام جم: يعني كأس العالم. تقول الأقاصيص الإيرانية القديمة: ((أن جام جم)) كأس كانت للملك جمشيد.. عليها خريطة العالم. أو ان العالم كله كان يتراءى في هذه الكأس. ويقال لها أيضاً: الكأس الرائية للعالم، أو كأس جلوة العالم.

وبعد هذا الإيضاح ربّما يكون معنى «فاطلب في نفسك حقيقة العبودية» أن: دع الهوى جانباً، وخالف نفسك ما استطعت، حتى يظهر الجوهر المخفي (حبّ الله)، ويظهر ظمأك الباطني.

أقل بحثك عن الماء، واستحصل الظمأ

لكي يتفجر ماؤك.. علواً وسفلاً

النتيجة النهائية

من المسلم، قارئي العزيز، أن الإسلام ـ وهو أكبر الأديان الإلهية وأكملها ـ ينطوي على آفاق ومراتب ومقامات. فيه «الظاهر». وفيه «الباطن» والأسرار. وللتعرف على هذه الأسرار لابد من تحقق خصوصية خاصّة لمن أراد أن يتعرف. وهذه الخصوصية «المحرمية» لا تدرك بغير العمل والمجاهدات والرياضات المستهدية بأهل بيت الوحي والعصمة (صلوات الله عليهم).. المستضيئة بمصباح الولاية.

إن المدرسة والكتاب والدرس مقدمة للفهم. والفهم مقدمة للعمل. والعمل مقدمة لهذه الخصوصية ـ المحرمية.

كان جمال السالكين العلامة الكبير السيد الأجل رضي الدين على بن موسى بن جعفر بن طاووس الحسيني، المشهور بـ «ابن طاووس» أو «السيد ابن طاووس».. من أعاظم علماء الشيعة. ومقامه في العلم والزهد والتعبّد ممّا

تلهج به ألسنة العلماء. وتدل مؤلفاته على أنه كان يملك مكتبة واسعة فريدة يقلّ لها النظير.. بحيث إن فهرست هذه المكتبة كتاب قائم بنفسه، وقد أسماه «الإبانة في معرفة أسماء كتب الخزانة»[1]. ومع وفرة ما كان لدى هذا السيد الجليل من الكتب، وشدّة احتفاله بشأن المكتبة والكتاب.. فإنّه وضع وصية لولده، قال له فيها ـ بعد وصف مفصّل لخزانته ومؤلفاته: «إن عاملت الله (جلّ جلاله) بالصدق والتحقق.. جعل قلبك مرآة تنظر بها ما يريده (جلّ جلاله) من العلوم، ومن وراء ستر رقيق؛ ففي أخبار صاحب الملة: «المؤمن ينظر بنور الله»[2].

أخي العزيز.. إن قائل هذا الكلام ممن يمكن أن يقال عنه إنه صاحب كرامات وعلم لدني[3] وخصوصيات متفردة. وقد نطق بهذا الكلام العرشي

---

(١) لكاتب السطور بحث بعنوان (فهرست المؤلفين في التاريخ الإسلامي) أنفق جهوداً مضنية في تأليفه. وقد قارب البحث نهايته ويوشك أن يدفع إلى المطبعة. عسى أن أوفق بإذن الله وبدعاء الأصدقاء لتقديمه في القريب إلى عشاق البحث والتحقيق. وقد أوردت فيه حديثاً عن سيرة السيد ابن طاووس وفهرست خزانته ووصفاً لمؤلفاته.

(٢) كشف المحجة لثمرة المهجة: ١٣٦، ط النجف الأشرف.

(٣) العلم اللدني: هو العلم الذي لا ينال بالدراسة والاكتساب، وإنما يفاض على القلب فيضاً من الله (تعالى). ومنه علم الأنبياء والأولياء والخواص ـ كما قال (تعالى) عن العبد الصالح في سورة الكهف: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ .. أي من عندنا، ومنه جاء وصف هذا النمط العالي الخاص من العلم بأنه ((لدني)).

بعد وصفه الكتب.. مما يعني أن الكتاب شيء جيد وجد عزيز بشرط أن يكون وسيلة. والحق أن كتاباً ومدرسة لا يوصلان المرء ليكون في مستوى السيد ابن طاووس أو الإمام الخميني، مما ينبغي النفرة منهما والجزع. وهذا هو معنى: «جزعت من المسجد ومن المدرسة». والله يقول الحق، وهو يهدي السبيل.

قال سيد الأماجد والجامع من شرف النسب بين الطريف والتالد (طيب الله تربته):

جامه زهد وريا كندم، وبرتن كردم

خرقه پير خراباتي، وهشيار شدم

وترجمته:

خرّقت ثوب الزهد والرياء

ولبست خرقة الشيخ وصرت شهما

شرح المفردات والمصطحات

«جامه زهد وريا كندم»: خرّقت ثوب الزهد والرياء. وهو تعبير عن البعد عن الرياء. واقتران الزهد هنا بالرياء يدلّ على أنّ المقصود ليس الزهد الواقعي المعروف، بل الزهد الرِّيائي.. وإلاّ فإن الزهد بمعناه الواقعي هو أحد

مراحل السلوك، ومن مقامات المقربين.

«خرقة»: الخرقة. الثوب الخَلِق. الثوب المرقع من قطع قماش مختلفة.

«خرابات»: الحانة. الخمارة.

«هشيار»: اللبيب العاقل. الفطن. الفهم. الشهم.

تفسير عرفاني

بحث «الخرقة» لدى المتصوفين بحث مفصّل. لا ضرورة هنا للخوض فيه. ويراد بـ «الخرقة» في عرف بعض كبراء أهل العرفان ـ على نحو عام ـ هو الكناية عن التأهل والصلاحية واللياقة. ويبدو أنّ هذا هو المراد بهذا البيت.

«پير خراباتي» ـ مرشد الحانة، شيخ الخمّار، جاء في الكشاف أنه «يطلق على الكاملين المكملين.. مثل:

من لم يصر إلى الخرابات (الحانة) فلا دين له

لأن الخرابات هي أصول الدين

والمراد بهذه الصيرورة إلى الخراب: خراب الصفات البشرية»[1].

---

(١) الكشاف٢: ١٥٥٤ط، كلكته.

النتيجة

يلوح في هذا البيت معنيان:

الأول ـ أن النأي عن التخلق بذميم الأخلاق من رياء وغيره، والانفلات من التعلقات الدنيوية، وبلوغ الزهد الواقعي.. ممّا يؤهل المرء لتلقي الحقائق والأسرار والمعارف اليقينية. وعندها يجتذبه الكاملون المكمّلون إليهم، ويوجهون همّتهم إلى تربيته. ذلك أنّ وصول المرء إلى مقام تلقي الأسرار وإفاضة العلوم ـ مهما كان له من الزهد والطهر ـ لا يغدوا ميسوراً له بغير مدد من الأستاذ الكامل.

انا لم اعبر الطريق وحيداً حين وافيت منزل «العنقاء»
إنما دلني على الدرب طير لسليمان، هدهدي الذكاء

الثاني ـ أن التحرر من أسر الدنيا والزهد الواقعي بها ـ وبكلمة أخرى: إن إخراج حب الدنيا من القلب بالمعنى الشامل العامّ، الذي يقول عنه مولانا:

ما عساها تكون هذه الدنيا

حتى تعجلت غافلاً عن الله

غير متاع وفضة وولد وزوجة؟!

يورث المرء أن يحشر مع رسول الله وأهل بيته الطاهرين (صلوات الله

عليهم أجمعين) في مواطن الدنيا والآخـرة؛ إذ أنّ الكـاملين المكملـين فـي الحقيقة هم هؤلاء الذوات المقدسة. ولا يتحقق هذا الحشر ما لم يخرج حب الدنيا من القلب. يقول الإمام علي بن الحسين زين العابدين (عليـه الـسلام) في دعاء «أبي حمزة الثمالي» المليء بالأسرار: «سيدي أخرج حب الدنيا مـن قلبي، واجمع بيني وبين المصطفى خيرتك من خلقك وخاتم النبيـين محمـد صلى الله عليه وآله». ويمكن أن نستشف من هذه العبارات علاقة التلازم بين الحشر مع أعزاء الله ـ في الدنيا والآخرة وبين إخراج حب الدنيا من القلـب. وهذا هو المعنى «صرت شهماً»(١).

معنى صرت «شهما ـ فطنا» في حديث الإمام الصادق

يقول الإمام الصادق (عليه السلام): «دعامة الإنـسان العقـل. والعقـل منـه الفطنة والفهم والحفظ والعلم. وبالعقل يكمل ـ وهو دليله ومبـصره ومفتـاح أمره. فإذا كان تأييده عقلة من النور.. كان عالماً حافظاً ذاكراً فطناً فهماً، فعلم ـ بذلك ـ كيف، ولم، وحيث، وعرف من نصحه ومن غشه، فإذا عرف ذلـك عرف مجراه وموصوله ومفصوله، وأخلص الوحدانية لله والإقرار بالطاعة. فإذا فعل ذلك كان مستدركاً لما فات، وارداً على ما هو آت، يعرف ما هـو فيـه،

---

(١) الشهم: الذكي الفؤاد المتوقد الفهم.

ولأي شيء هو ههنا، ومن أين يأتيه، وإلى ما هو صائر. وذلك كلّه من تأييد العقل»[1].

قال جمال السالكين المجلسي الأول [الشيخ محمد تقي]ـ نور الله تربته:

«اعلم أن هذا الخبر مشتمل على حقائق كثيرة. ولا يمكن بيانه؛ لأن هذه أحوال اوليائه (تعالى). ويلهمون ـ في كل آن ـ بما يحتاجون إليه من الترقّي إلى المراتب العالية من محبته ومعرفته ً وقربه ووصاله. أوصلنا الله (تعالى) وسائر المؤمنين إليها»[2].

تتميم نفعه عميم

قال العلامة المجلسي (مؤلف كتاب بحار الأنوار) ـــ قدس الله سره وحشرنا معه ـ في شرح هذا الحديث: «وإضافة التأييد إلى العقل... إما إلى الفاعل أو إلى المفعول ـ فتفطن»

يقول كاتب السطور: إن الإضافة هنا هي إضافة إلى المفعول؛ لأن الحديث في سياق ذكر العقل المؤيد.. قال : «فإذا كان تأييد عقله من النور» ـ فتفطن أنت أيضاً وأفهم.

قال سيد الفحول، والمفتلذ من مهجة الزهراء البتول (صلوات الله عليها) الإمام الخميني (نور الله مضجعه):

---

(١) أصول الكافي، ج١، الحديث رقم ٢٣.

(٢) روضة المتقين، ١٢: ٢٤٣.

واعــظ شــهر كــه از پنــد خــود آزارم داد

أز دم رنــد مــي آلــوده مــدد كــار شــدم

وترجمته:

إن واعــظ البلــدة آذانــي بنــصائحه لــي

فرحت أستمد العون من أنفاس السكران

شرح المفرادت والمصطلحات

«واعظ شهر»: واعظ البلد كناية عن اللائم الذي لا يعرف حقيقة الأمـر. أو يراد به الأناس الذين يعرفون في أوساط المجتمع على أنهم رجال دين، وهم لا يعلمون إلاّ ظاهراً من الدين وما عثروا على روحه وحقيقته[1].

«دم» يعني في اللغة: النفس. وتستخدم هذه اللفظــة أيــضاً بمعنــى الــورد والدعاء.

«رند»: الشاطر، الذكي، غير الهيّاب، المتحلل. من يدخل مداخل يلام عليها ويعنف، وهو ذو باطن سليم.

وقد وردت هذه اللفظة كثيراً في الشعر العرفاني، فــلا نحتــاج إلــى ذكــر

---

(١) هذا استنتاج المؤلف، ويفضل مراجعة المقدمة.

شواهد.

«مي آلوده» كناية عن السكران الثمل المخمور. يقول سعدي:

اتخذ المهخمور طريقه إلى المسجد[1].

تفسير عرفاني

يبدوا أن المعني بـ «واعظ البلد» عدّة من قصيري الإدراك القشريين المتعالمين الذين يصدون الناس عن الاقتراب من كبراء أهل المعرفة ويحرمونهم من الاستمداد من أنفاسهم القدسية. والمراد من «النصيحة المؤلمة» هي صدهم هذا، وأحاديثهم الهراء، واستدلالاتهم البتراء. وقد أشار

(١) أورد المرحوم (دهخدا) الشطر بهذه الصيغة، لكنه ورد في ديوان سعدي طبعة (فروغي) والطبعة المشهورة بـ (شوريده) بصيغة أخرى، إذ جاء تعبير ((ملطخ بالوحل)) بدل (مخمور). وربّما أمكن القول إنّ سياق أبيات سعدي أقرب إلى ما أورده (دهخدا). اللهم إلاّ أن نقول إن الشطر الذي استشهد به (دهخدا) هو مطلع لآبيات أخرى تحكي قصة غير قصة الملطخ بالوحل الذي مضى إلى المسجد، وهذا افتراض بعيد. ومهما يكن.. فإن ((الثنائية)) هذه قد وردت في (بستان) سعدي على هذا النحو:

*اتخذ ملطخ بالوحل طريقه إلى المسجد
وكان ـ لسوء حظه ـ في حيرة من أمره
*زجره أحدهم قائلاً: تبّت يداك!
لا تذهب ـ أبها الدنس ـ إلى المكان الطاهر

الإمام الخميني نفسه (قدس سرّه) إلى هذا، في تفسير سورة (الحمد)[1].

«الشاطر»: يقول صاحب الكشاف: «يراد به في اصطلاح السالكين شارب الخمر، وبائع الخمر».

«الخمرة»: جاء في الكشاف: «الخمرة عندهم بمعنى الوجد الذي يبتدي من قلب السالك، فيبتهج به. وتأتي أيضاً بمعنى المحبة والعشق».

نتيجة

يمكن تصور تفسير البيت على وجوه، منها ألاّ يصغى إلى الملامة التي تصدر من قصيري الفهم القشريين المتعاليين، والاستمداد من أنفاس الشطار السكارى. أي: الالتجاء إلى ظل تربية الكاملين المكملين الثمالى بشراب المحبة ـ وهو تعبير عن أساتذة الإمام (نور الله تربته).

---

(١) كنت قد ذهبت فيما مضى إلى أحد المدن البعيدة في إيران.. قاصداً إلى زيارة أحد أولياء الله. وقبل أن أتوجه هناك لزيارته، التقيت بأحد أئمة الجماعة في تلك المدينة ـ وكنت قد تعرفت عليه في قم. وبعد السلام والكلام.. علم أني أنوي زيارة ذلكم الرجل ـ فرأيت أمارات الاستياء على وجهه، وقال كلمة ذم بحقه.

والواقع إن إمام الجماعة هذا كان رجلاً طيباً، لكن المسألة مسألة القدرة على الهضم والاستيعاب وحجم وعاء الأخذ والتلقي. يقول أمير المؤمنين (عليه السلام): ((يا كميل.. إن هذه القلوب أوعية. فخيرها أوعاها)).

وفي التفسير وجوه أخرى ـ كما قلنا ابتداءً ـ لا نرى في إيرادها من فائدة.

قال سيد الحكماء (نور الله مثواه):

بگذاريـــد كـــه از بتكـــده يـــادي بكـــنم

من كه با دست بت ميكـده بيـدار شـدم

وترجمته:

دعـــــوني أذكـــــر بيـــــت الأوثـــــان

فإني على يد وثـن الحانـة قـد صـحوت

شرح المفردات والمصطلحات

«بتكده»: بيت الأوثان. المكان الذي توضع فيه الأصنام والأوثان.

«بت» الوثن، الصنم. ما يصنع من الخشب أو الحجر، ليعبد ويراد بـه فـي اصطلاح الشعراء: المحبوب والمعشوق.

«ميكده»: الحانة، حانوت الخمار، الخمّـارة، المكـان الـذي تـشرب فيـه الخمرة.

«بيدار»: المفيق، الصاحي، ما يقابل النائم. يقول مؤلف غيـاث اللغـات (ط الهند ص٧٨): «بيدار: لفظة مركبة من (بيد) و(دار)، بحذف إحدى الدّالين. أو إنّها مركّبة من (بيد) و (آر) الدالة على النسبة. و (بيد) بمعنى الشعور».

تفسير عرفاني

«بيت الأوثان» ـ يقول مؤلف (الكشاف): «بيت الأوثان... بمعنى باطن العارف الكامل الذي يغلب فيه الوجد والشوق والمعارف الإلهية»[١].

«الوثن» أو «الصنم» ـ وردت له في لغة العرفاء وعرفهم معان متعددة، لا يلزم هنا ذكرها جميعاً.. منها: المرشد الكامل، أو الشيخ الكامل.

«الحانة» ـ قدم المناجاة[٢].

تفسير عرفاني أساسي

من المباحث الدقيقة الشريفة المفصّلة لدى الفلاسفة والعرفاء مبحث: «المخلوق الأوّل» أو «أوّل صادر» من ساحة الحقّ (جلت عظمته). وليس غرضنا هنا أن ندخل في تفصيلات المسألة، ولا ان نتحدث عما تنطوي عليه من مصطلحات وموضوعات وقواعد. إنما نقول على سبيل الإجمال:

إن المتفق عليه المسلّم به بين المحققين وأرباب البصائر من علماء الإمامية (قدس الله أسرارهم) على اختلاف أذواقهم ومشاربهم ـ سواء أكانت فلسفية أو عرفانية أو حديثية أو فقهية أو كلامية ـ أن أول مخلوق كان واسطة

---

(١) ٢: ١٥٥٣، ط، كلكتة.

(٢) الكشاف، ٢: ١٥٦٣.

الفيض بين المبدأ المتعالي وسائر مظاهر الخلق، هو النور المقدس للرسول الأكرم محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، المعبر عنه، على ألسنة جميع العلماء بـ «الحقيقة المحمدية»، ولا ريب أن الأنوار المقدّسة لأهل بيته الطاهرين (صلوات الله عليهم) هي عين نوره، ومن أصل واحد.

وقد أضاءت الروايات المعتبرة، الواردة في هذا الموضوع، قضايا جدّ دقيقة ولطيفة، وكشف عن الإشارات نورية. وقد تجلت في هذه الروايات كلمات عرشية من قبيل «النور» و«الكلمة» و« الأشباح» و«الروح» و«الظل ـ الأظلة».. ممّا يقصر دونها العقل، ولا يلقاها إلاّ الذين هم خواص أهل البيت (عليه السلام) من أصحاب الرياضات والمجاهدات وأرباب الطهارة الباطنية. وهذه نماذج من الأحاديث:

١ـ عن جابر بن عبد الله، قال: قلت لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): أول شيء خلق الله (تعالى).. ما هو؟ فقال: نور نبيك يا جابر.. خلقه الله، ثمّ خلق منه كلَّ خير»[1]. وإن عبارة «ثُمّ خلق منه كلّ خير» لفي غاية الدقّة، وجدير بالتدبّر والتعمّق.

٢ـ قال باقر العلوم (صلوات الله عليه): «كان الله لا شيء غيره.. لا معلوم ولا مجهول. فأول ما ابتدأ من خلقه أن خلق محمداً (صلى الله عليه وآله

---

(١) بحار الأنوار، ١٥: ٢٤.

وسلم)، وخلقنا ـ أهل البيت ـ معه من نور عظمته.. فأوقفنا أضـلة خـضراء بين يديه، حيث لا سماء ولا أرض، ولا مكان، ولا ليل، ولا نهار، ولا شمس، ولا قمر»[1].

٣ـ قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «لمـا أراد الله أن يخلقنـا.. تكلم بكلمة.. خلق منها نوراً. ثُمّ تكلم بكلمة أخرى.. فخلق منها روحـاً. ثُـمّ مزج النور بالروح.. فخلقني وخلق علياً وفاطمـة والحـسن والحـسين. فكنّـا نسبحه حين لا تسبيح، ونقدسه حين لا تقديس»[2].

وهكذا نرى ـ كما أسلفنا ـ أنّ هـذه الأحاديـث تتـضمن قـضايا نوريـة وإشارات عرشية ومفاهيم في غاية العمق.

عبارات المؤلف «الفتوحات»

يقول الشيخ في الباب السادس من الفتوحات: «كان الله ـ ولا شـيء معـه. ثُمّ أدرج فيه، وهو الآن على ما عليه كان. لم يرجع إليه ـ من إيجاده العالم ـ صفة ما لم يكن عليها، بل كان موصوفا لنفسه ومسمى ـ قبل خلقه [الخلق] ـ بالأسماء التي يدعوه بها خلقه. فلمّا أراد وجود العالم وبدأ على حد ما علمه

(١) بحار الأنوار، ٢٣:١٥.

(٢) المصدر نفسه، ١٥: ١٠.

بعلمه بنفسه.. انفعل عن تلك الإرادة المقدسة بضرب تجل من تجلّيات التنزيه إلى الحقيقة الكلية حقيقة تسمى الهباء، هي بمنزلة طرح البناء الجص ليفتح فيه ما شاء من الإشكال والصور. وهذا هو أوّل موجود في العالم، وقد ذكر عليّ بن أبي طالب (رضي الله عنه) ...

(إلى أن يقول): ثمّ أنه (سبحانه وتعالى) تجلّى بنوره إلى ذلك الهباء ـ ويسميه أصحاب الأفكار بـ «هيولى الكلّ»؛ والعالم كله فيه بالقوة والصلاحية ـ فقبل منه (تعالى) كل شيء في ذلك الهباء.. على حسب قوّته واستعداده، كقبول زوايا البيت نور السراج. وعلى حسب قربه من ذلك النور يشتدّ ضوؤه وقبوله، قال (تعالى): ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾. فشبه نوره بالمصباح. فلم يكن أقرب إليه قبولاً في ذلك الهباء إلاّ حقيقة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) المسماة بـ «العقل». فكان مبتدأ [1] العالم بأسره، وأول ظاهر في الوجود. فكان وجوده من ذلك النور الإلهي، ومن الهباء، ومن الحقيقة الكلية. وفي الهباء وجد عينه وعين العالم من تجليه. وأقرب الناس إليه علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) إمام العالم وسر الأنبياء أجمعين»[2].

---

(١) ورد في ط مصر (اوفيست بيروت): ((سيد العالم)).

(٢) الفتوحات المكية ١: ١٥٤، ط، بولاق، ١٢٩٣هـ؛ وط مصر ذات الأربعة أجزاء (أوفيست بيروت) ١: ١١٩.

يقول الشيخ في هذه الفقرة من كلامه : إن أول ظاهر في الوجـود حقيقـة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) المسمّاة بـ «العقل»[1].

وأورد العارف الفناري في مصباح الأنس (الطبعة الحجرية ص١٧٥) نـصاً آخر للشيخ من فتوحاته، قال فيه: «بـدء الخلـق الهبـاء. وأول موجـود فيـه الحقيقة المحمدية (صلى الله عليه وآله وسلم)[2].

يقول الفناري في الصفحة نفسها: «وإنما قال الـشيخ الكبيـر فـي الحقيقـة المحمدية: «المسمى بالعقل الأول».. إذا كـان مـراده ـ والله أعلـم ـ روحـه

---

(١) يقول صدر الحكماء [صدر الدين الشيرازي]: قد يقال للحقيقـة المحمديـة (صـلى الله عليه وآله وسلم) العقل، والروح، والنور، والقلـم..)) ولا شـك أن أشـرف الممكنـات وأكـرم المجعولات هو العقل ـ كما علمت. فهو أول الصوادر وأقربها مـن الحـق... وهـذا الموجـود حقيقته حقيقة الروح الأعظم بعينها، المشار إليه بقوله (تعالى) : ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْـرِ رَبِّـي﴾... وإنما سمّي بـ ((القلم)) لأنه واسطة الحق في تصوير العلوم والحائق علـى الالـواح النفـسانية القضائية والقدرية ... ولكونه وجوداً خالصاً عن ظلمة التجسم والتحجب وعن ظلمات النقائص والاعلام يسمى ((نوراً))؛ إذ النور هو الوجود، والظلمة هي العدم. وهو الظـاهر لذاتـه، مظهـر لغيره. ولكونه أصل حياة النفوس العلوية والسفّلية، يسمى روحاً. وهو الحقيقة المحمدية (صلى الله عليه وآله))). شرح أصول الكافي، الطبعة الحجرية ـ الحديث الأول.

(٢) يقول الشيخ: ((إن الفلاسفة يعبرون عن الهباء بالهيولى)). والهيولى لدى الفلاسفة مـادة العالم. ويعبر عنها العرفاء أحياناً بـ ((العنقاء)). وما أردنا هنا ـ عزيـزي القـارئ ـ إلـى شـرح كلام الشيخ، فهذا حقه رسالة خاصة، لكنّا أوردنا موضوع الاستشاد وحسب.

ونفسه الشريفة المقدسة، كما مرّ، فإن حقيقته باتفاق المحققين في حقيقة الحقائق».

حقيقة مهمة في كلام ابن عربي

وحين يقول: «... وكان أقرب الناس إليه علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) إمام العالم وسر الأنبياء أجمعين»[1]. وزبدة كلامه أنّ أقرب الناس إلى

---

(١) ثُمّ اختلاف ـ فيما يتصل بهذا الموضوع ـ في نص الفتوحات بين الطبعة المصرية ذات الأربعة أجزاء (وقد أعيد طبعها بالأوفيست في بيروت)، وبين طبعة بولاق المصرية أيضاً.. ممّا ينبئ عن وجود أيدي معادية لأهل بيت الوحي والعصمة (عليهم السلام) قد امتدت إلى هذا الكتاب بالتحريف. قال عبد الله الشعراني ـ من العرفاء البارزين في مصر ـ في كتابه ((اليواقيت والجواهر))١: ٣)): ((اخبرني الشيخ العارف أبو طاهر المزني الشاذلي أن أشياء قد دست في كتب الشيخ)). وقد ظهرت جناية هذه الأيدي الآثمة على خيانتها.. في الموضوع المتصل بإمام الزمان (صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين) في الفتوحات. بيد ان باطن الولاية قد فضح هذه الدسيسة، كما في هذا الإيضاح: أورد الشيخ في عدة مواضع من الفتوحات ذكراً للإمام الزمان (عليه السلام). وفيها أنه (سلام الله عليه) من أبناء الإمام الحسين (عليه السلام): فكان أن عمدت يد الخيانة إلى المواضع التي فيها اسم ((الحسين)) ، فأبدلته باسم ((الحسن)). وقد رأيت ثلاث طبعات من الفتوحات ماثلة فيها آثار هذه الخيانة. وهذه الطبعات هي: ١ـ طبعة بولاق ٢ـ الطبعة التي أعقبت طبعة بولاق كما أشرنا آنفا ٣ـ طبعة دار الكتب العربية الكبرى بمصر (على نفقة الحاج محمد قدا الكشميري).

كشف الخيانة: وقد غفل هذا الخائن أن نسخاً أخرى من الفتوحات هي في حوزة علماء

حقيقة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ـ في بدء الخليقة ـ كان علي بن أبي طالب (صلوات الله عليه).. الذي هو امام العالم وسر الأنبياء كافة.

وإن كون سلطان الولاية (أرواحنا فداه) هو سر الأنبياء لمن المباحث العرفانية والاعتقادية الموغلة في العمق، ومن أدق وأخفى قضايا المعارف الإسلامية. ويشهد على هذه الحقيقة روايات شيعية وسنية. وهذا حديث واحد منها ـ هو غيض من فيض ـ ندرجه تيمناً في هذا السياق:

السنة آخرين، ومنهم الشعراني الذي ألمحنا إليه قبل سطور.

عبارات الفتوحات في موضوع إمام الزمان

يقول الشعراني في كتاب (اليواقيت والجواهر ٢: ١٤٣ ط مصر ١٣٧٨هـ):

((وعبارة الشيخ محيي الدين في الباب السادس والستين وثلاثمئة من الفتوحات: واعلموا أنه لابد من خروج المهدي (عليه السلام). لكن لا يخرج حتى تمتلئ الأرض ظلماً وجوراً، فيملؤها قسطاً وعدلاً. ولو لم يكن من الدنيا إلاّ يوم واحد طوّل الله (تعالى) ذلك اليوم حتى يلي ذلك الخليفة. وهو من عترة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من ولد فاطمة (رضي الله عنها). جدّه الحسين بن علي بن أبي طالب. ووالده حسن العسكري ابن الإمام علي النقي ـ بالنون ـ ابن محمد التقي ـ بالتاء ـ ابن الإمام علي الرضا ابن الإمام موسى الكاظم ابن الإمام جعفر الصادق ابن الإمام محمد الباقر ابن الإمام زين العابدين علي ابن الإمام الحسين ابن الإمام علي بن ابي طالب (رضي الله عنه))).

إن هذا الكلام إنما اعتمد فيه الشعراني وأمثال الشعراني على ما بين أيديهم من نسخ (الفتوحات) وهم علماء السنة.

يعد الحاكم النيشابوري من كبار المحدثين وأعاظم العلماء، وهو لدى أهل السنة موضع احترام جمّ وتقدير كبير. وقد اكتسب كتابه المعروف (المستدرك على الصحيحين) شهرة عالمية. وفي كتاب (معرفة علوم الحديث ص٩٦، ط الهند ـ دائرة المعارف العثمانية) ـ الذي طبع محققاً ومقابلاً على عدة نسخ مخطوطة ـ عام (١٩٣٥م) .. نقل الحاكم عن أحد مشايخ، وهو أبو الحسن محمد بن المظفر الحافظ، حديثاً مسنداً. وبعد أن أورد الحاكم هذا الحديث .. أكد ما يتصف به محمد بن المظفر من الأمانة وسعة الاطلاع والوثاقة بقوله: «وهو عندنا ثقة مأمون».

وهذا نص الحديث الذي رواه عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «أتاني ملك فقال: يا محمد، وسل من أرسلنا من قبلك من رسلنا على ما بعثوا؟ قلت: على ما بعثوا؟ قال: على ولايتك، وولاية علي بن أبي طالب».

أجل.. إن الأنبياء إنّما بلغوا النبوة لقبولهم بولاية هذين السيدين العظيمين. وفي هذا كثير من المعاني والأسرار.

وكما أن النور المقدس لرسول الله وأمير المؤمنين (صلوات الله عليهما وآلهما) كان واسطة فيض الوجود بين الله والخلق.. كان هذا النور واسطة الفيوضات الأخرى، ومنها نبوة الأنبياء وإذا كان النبي الأكرم متأخراً زماناً ـ في الظاهر على الأنبياء، فإنه متقدم عليهم جميعا في المعنى والباطن. يقول

ابن الفارض عن لسانه (صلى الله عليه وآله وسلم):

وإني ـ وأن كنت ابن آدم صورة فلي فيه معنىً شاهد بأبوتي

وإلى هذا يشير الحديث المشهور : «كنت نبياً.. وآدم بين الماء والطين».

يقول (شاه نعمة الله ولي):

أنت المقصود من وجود العالم كله

يا مظهر الاسم الأعظم

إني لأتحسر على رشفه من كأسك

حاملا روحي على الكف

يا خاتم الأنبياء في الظاهر

لكن معناك هو المقدم عليهم جميعا

في خلوتك الخاصة «لي مع الله»[1]

ما كان غيرك يباح له الاطلاع على السر

أنفاس عيسى (المحيية) هي أنفاسك

وبك قد حيت روح آدم

---

(١) إشارة إلى قوله(صلى الله عليه وآله وسلم): ((لي مع الله وقت لا يسعني فيه نبي مرسل ولاملك مقرّب)).

صـــورتك مطبوعـــة منـــي فـــي الخيـــال
يـــا نـــور عيـــون أهـــل العـــالم[1]

ويقول:

فـــي مـــرآة وجـــود آدم شـاهدت جمـال الاسـم الأعظـم
رأيـــت المعنـــى المحمـــدي فـــي طلعـــة آدم الجميلـــة
هـــو رأيتـــه لا ســـواه ولو كان ثمة غيره فما هو إلاّ وهـم
إن آدم موجـــود بوجـــوده هـــو والعـالم مـا ازدهـر إلاّ بجمالـه[2]

ويقول الشاعر السامي الحكيم النظامي:

*أيها السلطان الممتطي ملك الوجود

أنت سلطان العقل المقتدر

*يا ختم الأنبياء والمرسلين

يا حلوى الآخرين وملح الأولين[3]

ويقول الحكيم السنائي:

---

(١) الديوان ٤٤٤ـ ٤٤٥، الطبعة الحجرية.

(٢) المصدر نفسه: ٤٤٢ـ ٤٤٣.

(٣) خمسة نظامي: ٤٣١ ط أمير كبير.

غدا آدم الأب .. أبنا له

لشرفه .. صار أبنا له[1]

ويقول أيضاً:

صورة آدم كانت من أحمد وصفات آدم

هي من مظاهر صفات أحمد. كما كان آصف بن برخيا[2]

ويقول سعدي:

إن السماء الشاهقة. على استحياء إزاء قدرك

فأنت خُلقت. وآدم بين الماء والطين[3]

انظر ـ إذن ـ إلى العرفاء والعلماء كيف تناولوا هذه الحقيقة العظيمة، فصاغوها، شعراً ونثراً ـ بعبارات عذبة وألفاظ أرق من نسيم السحر:

عباراتنا شتى، وحسنك واحد   وكل إلى ذاك الجمال يشير

وحديث: «أنا وعليّ أبوا هذه الأمة»[1] أشارة إلى هذا المعنى:

---

(١) حديقة الحقيقة: ١٩٤ط المدرس الرضوي.

(٢) الديوان ٤٤ ط المدرس الرضوي.

(٣) بستان سعدي، ٦ط فروغي.

*قال النبي: أنا لكم ـ أيها الكبراء ـ

كالأب الرؤوف الرحيم

*ذلك أنكم جميعاً أجزاء مني

فكيف يقتطع الجزء عن الكل؟!

وكذا في مطلع البحث قد أشرنا إلى أن نور رسول الله هو عين نور أمير

---

(١) بحار الأنوار، ٣٦: ٩. وفي المصدر نفسه (٣٦: ٥) روي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قوله: ((حقّ عليّ على هذه الأمة كحق الوالد على الولد)). وقد ورد في أحاديث عدّة إن العاق لوالديه لا يشم ريح الجنة. وعليك بمراجعة الحديث مفصلاً. (تبصرة)

ربما يقول مصاب بالعمى في بصيرته من المخالفين إن تعبير ((الأبوين)) يطلق على الأب والأم.. أي الزوج والزوجة. وجواب هذا أن يقال له: قولك هذا مبعثه ظلمة باطنك وجهلك؛ فإن ((الأبوين)) يطلق على الرجلين. قال (تعالى) في سورة يوسف: ﴿.. كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ﴾.. إذ أطلق هذه اللفظة على إبراهيم وإسحاق (عليهما السلام).

(أبيات شعر رقيقة)

معلوم لك أن ((أبا تراب)) من كنى سلطان الولاية (أرواحنا فداه). وقد قال الشاعر الكبير والأديب المطبوع عبد الباقي العمري الذي وصفه أحد علماء العراق بأنه (أديب العراق على الإطلاق).. قال أبياتاً حول كلمة (أبي تراب) جاءت بديعة في غاية الرقة واللطافة:

ديوان عبد الباقي العمري: ١٢٦ط النجف الأشرف.

وعبد الباقي العمري هذا سنّي، يصل نسبه بعمر بن الخطاب بأقل من أرعين واسطة.

المؤمنين والصديقة الطاهرة والأئمة الطاهرين من ذريتهم (صلوات الله عليهم أجمعين)، ومن أصل واحد. وقد تحقق ظهور هذا النور في مـواطن مختلفـة ومظاهر متعدّدة. وهذه الذوات المقدسة كانـت ومـا تـزال وسـتظل واسـطة الفيض على الإطلاق.. حيث لا انتهاء لآثار هذه الواسطة. كما عبرت عن هذا المعنى عبارة: «والرحمة الموصولة» في نص (الزيـارة الجامعـة)، إذ تقـول: «أنتم الصراط الأقـوم، وشـهداء دار الفنـاء، وشـفعاء دار البقـاء، والرحمـة الموصولة...». ويؤيد هذا المعنى جمّ غفير من الأدلة، في الروايات وفي غيـر الروايات. وههنا أسرار وافرة يتعذر الدخول فيها قبل أن نقـدم لهـا بمقدمـة. لست أهلاً لها، إلاّ أني أقول:

.. برشـــــفه لا تـــــورث أذى لأحــــــد

فأنــا أتعــذب مــن جهلــة النــاس.. فــلا تــسل

ومن الخير لمن لا يدرك مثل هذه المباحث.. أن يعنى بتحصيل العلم ـ ان كان مؤهلاً وتطهير الباطن.. بدل أن يحمل عليها وينكرها. وقد كان جديراً به في الأقل أن يقول إزاءها: لا أعلم، فيحمل نفسه هو شيئاً من اللوم:

إن ما حل بل هو من صنع يديك، فوقعت في الحرمان

فعلى مَ إذن هذا البكاء والعويل؟!

قال بعض الأعلام في شرح قوله (عليه السلام) «والرحمة الموصولة»: «إن

عالم الرحمة هو عالم الجمع ومرتبة الوجود المطلق من حقيقة النبوة. ولكن المراد بها في هذا المقام ـ بقرينة توصيفها بوصف «الموصولة»ـ هو مرتبة الولاية النورية، والرحمة الحيمية المكتوبة للمؤمنين.. التي أشار إليها بقوله (تعالى): ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۞ قُلْ بِفَضْلِ اللّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

في (المجمع) و (الجوامع) عن الباقر (عليه السلام): «فضل الله: رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، ورحمته: علي بن أبي طالب (عليه السلام»). وزاد القمي: «فبذلك فليفرح شيعتنا هو خير مما أعطوا أعداؤها من الذهب والفضة». انتهى كلام ـ رُفع مقامه،

قلت: ما رواه (قدس الله سرّه) عن الباقر (صلوات الله عليه) في تفسير الفضل والرحمة.. هو من باب بيان المصداق ـ فافهم.

نتيجة وتفسير نهائي

عسى أن تكون ـ عزيزي القارئ ـ قد واكبتنا بإذن الله (تعالى) فيما ذكرنا في هذا السياق. وإذ كنت كذلك.. هلمّ الآن نتطلع إلى ما يقوله هذا الفقيه العارف الكبير في آخر بيت من أبيات قصيدته العشقية هذه.. وبعبارة أخرى: أن نفهم ما تعبّر عنه آخر آهة أطلقها قلب هذا العاشق ذي الشيبة الشيخ؟

يلوح هنا أن معنى «بيت الأوثان» هو عالم النور أو عالم الأشباح الذي ألمعنا إليه ، وقلنا: إن العقل يرتد حاسراً عن إدراك هذا المبحث ـ اللهم إلاّ العقل المؤيد بالنور.. والمراد بالأوثان الكائنة ثمة.. هو أنوار المعصومين المقدسة (صلوات الله عليهم أجمعين). جاء في نص الزيارة الجامعة: «خلقكم الله أنواراً فجعلكم بعرشه محدقين».

بيني وبينك في المودة نسبة　　مستورة عن سر هذا العالم
نحن اللذان تحاببت أرواحنا　　من قبل خلق الله طينة آدم

أما «الحانة».. فهي مرتبة بدء الخلق. وإذ أن إيجاد العالم كان بالمحبة ـ كما بحثت هذه الحقيقة في موضعها ـ جاء إطلاق (الحانة) على العالم كناية عن إيجاده بالحب. ولأن أوّل ظاهر وأول موجود في بدء الخلقة كان الحقيقة النورية المحمدية (صلى الله عليه وآله وسلم) ـ الذي هو أوّل صادر من الحق (جلّ وعلا) وأحبّ خلقه إليه ـ فقد أطلق عليه «وثن الحانة».

قال شارحاً «خمرية» ابن الفارض: الشيخ محمد حسين البوريني وعبد الغني النابلسي.. لدى قوله:

شربنا على ذكر الحبيب مدامة　　سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم

قالا: «إنهم يذكرون في عباراتهم الخمرة بأسمائها وأوصافها، ويريدون بها ما أراد الله (تعالى) على ألبابهم من المعرفة أو من الشوق والمحبة.

و«الحبيب» ـ في عبارته ـ عبارة عن حضرة الرسول (عليه الصلاة والسلام). وقد يريدون به ذات الخالق القديم (جلّ وعلا)؛ لأنه (تعالى) أحب أن يعرف فخلق. فالخلق منه ناشئ عن المحبة، وحيث أحب فخلق؛ فهو الحبيب والمحبوب، والطالب والمطلوب.

«المدامة»: المعرفة الإلهية، والشوق إليه (تعالى).

وقوله: «سكرنا بها»: أي طربنا وانتشينا على السماع ﴿أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ﴾.

«قبل أن يخلق الكرم»: أي الوجود؛ فإن الكرم عبارة عن هذا الوجود الممكن الحادث الذي أوجدته القدرة الإلهية. ولا شك أن طرب الأرواح على السماع، عند شرب الرّاح، قبل إيجاد الأشباح»[1].

والمراد بـ «صحوت على يد وثن الحانة»: الصحوة من نومة العدم، أو تلقي الفيض ـ بمعناه المطلق ـ من الحقيقة المحمدية وأنوار المعصومين المقدسة (صلوات الله عليهم أجمعين).

من ممرّه على تراب حيكم

يحصل نسيم السحر على عبيره المسكي

---

(١) شرح ديوان أبن الفارض، ٢: ١٧٤ط، مصر.

السلام عليكم يا أهل بيت النبوة، وموضع الرسـالة، ومختلـف الملائكـة، ومهبط الوحي، ومعدن الرحمة، وخزان العلم، ومنتهى الحلم، وأصول الكرم، وقادة الأمم، وأولياء النعم، وعناصر الأبرار، ودعائم الأخيار، وساسـة العبـاد، وأركان البلاد، وأبواب الإيمان، وامناء الـرحمن، وسـلالة النبيـين، وصـفوة المرسلين، وخيرة رب العالمين.. ورحمة الله وبركاته.

هذا تمام الكلام في شرح كلام سيد الأعـلام (قـدس الله نفـسه الزكيـة). وسلام عليه يوم ولد، ويوم مات ويوم يبعـث حيـاً. وقـد تـم تـسويد هـذه الأوراق المبعثرة في أيام أوّل أربعين الارتحال الفاجع لمؤسـس الجمهوريـة الإسلامية في إيران الإمام الخميني (قدس الله لطيفه وأجزل تشريفه).

وأنا الفقير السيد عبد الله الفاطمي ابن العارف بالله (تعالى) العلـم الحجـة السيد إسماعيل الأصفيائي (دام ظله). وصلى الله علـى سـيدنا محمـد وآلـه الطاهرين، وعلى جميع أنبيائه ورسله وملائكته، والشهداء والصديقين.. وسلّم تسليماً كثيراً، وآخر دعوانا أنِ «الحمد لله رب العالمين»،

(يوم الأربعاء الخامس عشر من ذي الحجة الحرام عام ١٤٠٩هـ ذكرى يوم المولد السعيد لمولى العالم الإمام علي النقي الهادي صلوات الله عليه وعلـى آبائه وأبناءه الطاهرين)

فهرس الكتاب